التراث الديني في شعر ابن زيدون

اعداد الدكتور

أنور يعقوب زمان

قسم اللغة العربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة

طيبة المملكة العربية السعودية.

التراث الديني في شعر ابن زيدون

أنور يعقوب زمان
قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني: azaman@tabihu. edu. sa

الملخص:
منذ بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته ظهر تأثر الشعر بهذه الدعوة، وبدأت ألفاظها ومعتقداتها تدخل في مفردات الشعر وصوره وكان لها الحضور القوي في الشعر على مر العصور، وامتد هذا الأمر لأجيال متعاقبة وكان ممن تأثر به شاعر الأندلس ابن زيدون الذي كان لنشأته وبيئته أثر في استلهامه هذا التراث الديني، وضم ديوانه الكثير منه بأساليب شتى في أغراض مختلفة.
يبحر هذا البحث مع الشاعر ابن زيدون بتمهيد مفهوم التراث الديني، ثم ستة مباحث يتم الحديث فيها عن الموضوعات التي ذكرها في أشعاره عن التراث الديني. وسيتم التركيز في كل مبحث على استنباط الجوانب الفنية وتحليلها ومدى نجاح الشاعر أو إخفاقه في التفاعل مع التراث الديني، وكان من أبرز الأسس الفنية في شعره، كما نم عن إبداعه الشعري، وتوظيفه التراث في خدمة النص الأدبي وإخصابه.

الكلمات المفتاحية: التراث، الديني، الشعر، ابن زيدون, الأندلس.

Religious heritage in the poetry of IbnZaidoun

Anwar YaqoubZaman

qismallughatalearabiat , kuliyataladabwaleulumal'iinsania,Taibah Universit

Email :azaman@tabihu. edu. Sa

Abstract

Since the Prophet, may Allah's prayers and peace be upon him, began his mission, poetry appeared to be affected by it, and its words and beliefs began to enter the vocabulary and images of poetry and had a strong presence in poetry throughout the ages, and this matter extended to the successive generations. Inspired by this religious heritage, IbnZaidoun's (An Andalusian poet) collection of poems (divan) included a lot of it in various ways for different purposes. This research explores the poet IbnZaidoun and the introduction of the concept of religious heritage. Then in six studies we talk about the topics he mentioned in his poems about religious heritage. In each topic, the focus will be on deriving and analyzing the technical aspects and the extent of the poet's success or failure in interacting with the religious heritage, and how it was one of the most prominent artistic foundations in his poetry, as well as his poetic creativity and his use of heritage in the service of the literary text and its enrichment .

.**Keywords**: Heritage, Religious, Poetry, IbnZaidoun, ALandalus

الشاعر ابن بيئته التي يعيش فيها والبيئة لا تقتصر على المكان والأمور المحسوسة التي يتأثر بها، بل هي أوسع من ذلك فهي تشمل المكان والفكر والثقافة والتعاملات التي يكتسبها الإنسان بوعي وبغير وعي فتتغلغل في كيانه وشخصيته بحيث يدري أو لا يدري، ولعل أبرز ما يكتسبه الإنسان منذ نشأته الأولى اللغة والدين، واللغة مكتسبة أما الدين ففطري، ولكن هذا الدين حتى لو انحرف به المجتمع الذي يعيشه الإنسان فإنه يتأثر به ويمتزج في ثقافته وسلوكه.

إن الدين أكبر موجه للإنسان في حياته؛ لأنه في الغالب عبارة عن مبادئ ومعتقدات يعتنقها الإنسان وتوجه حياته، فكيف لو كان هذا الدين هو الدين الحق فإن الإنسان سوف تكون له رؤى واضحة وأهداف محددة يسير إليها، وهذا الذي دفعني لاختيار مجال الموروث الديني.

والذي حفزني لتحديد الموروث الديني عند ابن زيدون أنه شاعر فذ ذو موهبة أدبية مبدعة، إن الذي يتبادر إلى الذهن عند سماع ابن زيدون أنه غارق في العشق والغرام خاصة مع ولادة، والطبيعة ومفاتنها، لكن من يقلب صفحات الديوان يجده مليئاً بتلك الصور والأساليب المستلهمة من تراثنا الديني الإسلامي، مما يؤكد تأثره بنشأته الدينية فقد كان "شاعرنا ينتمي إلى هؤلاء الفقهاء من جهتي أمه وأبيه"[1]، الذين تربى على أيديهم وغيرهم في صغره، وكذلك كان أصدقاؤه أبو الوليد بن جهور وابن ذكوان[2] اللذان خالطهما وغيرهما، فانعكس ذلك كله على شعره.

الهدف من الدراسة: دراسة التراث الديني في شعر ابن زيدون دراسة تحليل وتفسير واستنباط ما فيها من جماليات.

---

(١) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص٢٢.

(٢) الديوان، ص٢٦.

أسئلة البحث:

كيف وظف ابن زيدون التراث الديني في شعره؟

ما مظاهر الإبداع أو النقص في أبياته المشتملة على التراث الديني؟

ما الأمور الدينية التي تناولها في شعره؟

تتكون الدراسة من تمهيد يتناول مفهوم التراث الديني، ثم ستة مباحث يتم الحديث فيها عن الموضوعات التي ذكرها في أشعاره عن التراث الديني وهي: مظاهر العقيدة والآخرة والعبادة، المناسبات والأماكن الدينية، التناص مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، المصطلحات العلمية، الشخصيات الدينية والتاريخية، وأخيراً إشارات دينية منوعة. وسيتم التركيز في كل مبحث على استنباط الجوانب الفنية وتحليلها.

تمهيد: مفهوم التراث الديني:

التـراث لغـة: أصـله مـادة (ورث)، "الميـراث أصـله مِـوْراثٌ، انقلبـت الـواو ياء لكسرة ما قبلها. والتُراثُ أصل التاء فيه واو"(١).

"الـوِرْثُ والـوَرْثُ والإِرْثُ والـوِرَاثُ والإِرَاثُ والتُّـراثُ واحـد... ووَرِثَـهُ مالَـهُ ومَجْـدَهُ"(٢)، أي أن التـراث يشـمل الأمـور الحسـية والمعنويـة، وغيـر مقتصـر علـى الماديـات، فيشـمل مـا تركـه الأقـدمون مـن أمـور محسوسـة كالكتـب والمخترعـات وغيرهـا، والأمـور المعنويـة كـالعلوم والأخـلاق وسـواها، وهنـاك مـن يفـرق فيجعـل "الـوِرث والميـراث فـي المـال، والإرث فـي الحسـب... (الـوارث) صـفة مـن صـفات الله عـز وجـل وهـو البـاقي الـدائم الـذي يـرث الخلائـق ويبقـى بعـد فنـائهم"(٣). وهـذا يـدل علـى صـفة البقـاء والـدوام والامتـداد للتراث بعد وفاة أهله وأصحابه.

اصـطلاحاً: "مـا خلفـه السـلف مـن آثـار علميـة وفنيـة وأدبيـة، ممـا يعتبـر نفيساً بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه"(٤).

ويتوسـع د جبـور فـي تعريفـه بأنـه "مـا تـراكم خـلال الأزمنـة مـن تقاليـد وعـادات وتجـارب وخبـرات وفنـون وعلـوم فـي شـعب مـن الشـعوب، وهـو جـزء

---

(١) الجوهري، إسـماعيل بن حماد، الصـحاح تاج اللغة وصـحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، مادة (ورث)، ٢٩٥/١ .

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرَّم، لسـان العرب، صـححها: أمين محمد عبد الوهاب – محمد الصـادق العبيدي، ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي – مؤسـسـة التاريخ العربي، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، مادة (ورث)، ٢٦٦/١٥.

(٣) السابق، مادة (ورث)، ٢٦٦/١٥.

(٤) وهبـه، مجدي – كامل المهندس، معجم المصـطلحات العربية في اللغة والأدب، ط٢، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م، ص٩٣.

أساسي من قوامه الاجتماعي والإنساني والسياسي والتاريخي والخُلقي، يوثق علاقته بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه"[1]، فأضاف التقاليد والعادات، وربطه بالآباء والأجداد.

والتراث يبدأ بفرد فإذا أقرته وقبلته المجموعة تبنته وتناقلته وورّثته للأجيال بعدها، "يخلده التاريخ لما فيه من قيمة في ذاته يؤثر بمن جاء بعدهم يعتزون به ويعدونه جذورهم التي يتغذون منها لمواصلة حضارتهم العريقة"[2].

إن قضية التراث "في جوهرها قضية وجود ومصير من حيث تكشف عن حقيقة ذاتنا وآماد طاقاتنا، وتضيء لنا معالم الطريق وآفاق الطموح"[3]، فمن لم يعرف ماضيه لن يكون له مستقبل.

والتراث لا يقتصر على العلوم اللغوية والشرعية والتاريخية فقط، بل يشمل "ما ترك أسلافنا من ثمار عقولهم في مختلف فروع المعرفة وميادين العلم ومن طب وعقاقير وكيمياء... "[4].

أما تحديد زمن التراث فذاك من الصعب معرفته متى بدأ وأين تنتهي جذوره أو تحديد وجوده التاريخي على الحضارة العربية بعد الإسلام[5].

---

(١) عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، ط٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م، ص٦٣.

(٢) الجبوري، جمعة حسين يوسف، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين الموحدين، ط١، عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع – مؤسسة دار الصادق الثقافية، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، ص٢٢.

(٣) عبد الرحمن، عائشة، تراثنا بين ماضٍ وحاضر، ١٩٦٨م، ص٧.

(٤) السابق، ص٨.

(٥) الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي، ص٢٣. نقلاً عن: عبد الرحمن، عائشة، تراثنا بين ماضٍ وحاضر، ١٩٦٨، ص٢٨. ورجعت للكتاب ولم أجد المعلومة في الصفحة المذكورة.

لكن التراث الديني الإسلامي يرجع إلى بداية الخليقة فعندما يذكر أي شاعر أبانا آدم وأمنا حواء عليهما السلام فهو يعود بالمتلقي إلى أساس البشرية. "ولا يخفى ما للدين من أهمية في حياة الناس، لما له علاقة بعواطفهم، إذ ليس هناك عاطفة أقوى من عاطفة الدين. من هذا المنطلق يوظف الأدب تراثه الديني ضمن إنتاجه الأدبي واعياً أو غير واعٍ، مباشرة أو غير مباشرة، مثيراً في القراء مشاعرهم الدينية بغية تلقي استجابة أكثر من قبلهم"(١) ولذلك فإن **التراث الديني** "هو كل ما يدخل في إطار الدين من مرجعيات دينية وما يتبعها من الأنساق الفكرية وبما يعالج الروح الإنسانية ويوثق صلتها بربها العظيم وما يرتبط بمعايير العقيدة الإسلامية المتمثلة بالقرآن الكريم وقصصه وبالأحاديث النبوية الشريفة لرسولنا الكريم ﷺ"(٢)، وجميع هذه المضامين دخلت في ذهنية الشاعر عن طريق الاطلاع عليها والتعامل معها فامتزجت في أفكاره وغذت ثقافته فانطبعت على أشعاره ولا سيما الشاعر الأندلسي(٣).

(١) أصفهاني، محمد خاقاني – جلائي، مريم، التراث الديني في شعر سميح القاسم شاعر المقاومة الفلسطينية، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد: ٥، ربيع ١٣٩٠هـ – ٢٠١١م، ص٤.

(٢) الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي، ص٣٩. نقلاً عن: المحمدي، عمر خليل إبراهيم، أثر التراث الجاهلي والإسلامي في الشعر الأندلسي – عصر الطوائف، الجامعة المستنصرية– كلية الآداب– قسم اللغة العربية، دكتوراه، ٢٠٠٣، ص١٥.

(٣) السابق، ص٣٩.

وهناك من يرى أن التراث الديني يشمل "كل مظاهر العقائد الدينية التي تمثل القيم المستخلصة من أصل الدين، ويشمل أيضا الطقوس والشعائر التي يحتويها المضمون الديني، التي تفصح عن ممارسات خاصة يرتبط بها الإنسان مع العالم الروحي"(١).

فالتراث الديني يشمل الممارسات الدينية والأمور العقائدية الغيبية والآداب والسلوكيات والعلوم.

والأديب لا يبدأ من الفراغ بل لابد له من قاعدة يبدأ منها ويتكئ عليها صعوداً وإبداعاً في نتاجه الأدبي، فالتراث يبدأ معه منذ تلقيه لغته الأولى من والديه ليبني عليها، ثم "يبزغ الأديب المبدع الذي يعمق ما اختزنه من موروث ويسبغ عليه ظلالاً خاصة هي حدود شخصية الأديب"(٢)، ثم إن الأديب الحق لا يتحجر حول تراثه فقط ويعيده ويكرره منفصلاً عن عصره بل يلبس أدبه "من روح عصره ليظهره بالمظهر اللائق ((فالإعجاب الواعي بالتراث يوجب ويستلزم عدم تكراره)) وذلك يكون من خلال وعي الشاعر الكامل للتراث"(٣). فالأديب المبدع لا يكرر التراث حرفياً وإنما يوظفه التوظيف الصحيح حسب أحداث عصره وبيئته ومواقف حياته. والتأثر "سمة إنسانية مشتركة بين الشعوب لا تعني النقل عن الآخر ومحاكاته وإنما تعني سعة المعرفة والاطلاع، فالإبداع والأصالة"(٤).

---

(١) عبد المجيد، مريم عبد النبي، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، مجلة الخليج العربي، المجلد ٣٧، العدد: ١- ٢، سنة ٢٠٠٩م، ص١١٧.

(٢) الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي، ص٢٦- ٢٧. نقلاً عن: الطعان، هاشم، التراث والأديب المعاصر، مجلة الأديب المعاصر، الأعداد: ٢٤، ٢٥، ٢٦، السنة الخامسة، ١٩٧٧م، ص٥.

(٣) السابق، ص٢٧. نقلاً عن: المقالح، عبد العزيز، من البيت إلى القصيدة – دراسة في شعر اليمن الجديد، بيروت: دار الآداب، ١٩٨٣م، ص١٥٣.

(٤) أصفهاني، محمد، التراث الديني في شعر سميح القاسم، ص١.

ولـيس بالضـرورة أن يقـدم الشـاعر التـراث علـى شـكل معـارف مـن خـلال الاقتبـاس والتضـمين بـل يمكـن أن يقدمـه علـى شـكل رؤى وهـذه الـرؤى هـي التـي تعكـس اسـتيعابه وفهمـه للتـراث وتقديمـه علـى شـكل كنايـات وأقنعـة ورمـوز ورؤى فهـو يقـدم التـراث دائمـاً جديـداً لـيس علـى مسـتوى الفكـر أو العمـل بـل علـى مسـتوى الخلـق الشـعري ككـل[1]، ليكـون التـراث موائمـاً ومواكبـاً لعصر الشاعر والمتلقين.

إن توظيـف ابـن زيـدون للتـراث الـديني يـدل علـى نشـأته النشـأة الدينيـة القويـة وأثرهـا فـي حياتـه فيمـا بعـد، إضـافة إلـى تقبـل وتـأثر المجتمـع وخاصـة الطبقـة العليـا بـه علـى الـرغم ممـا يقـال مـن وجـود مجـالس اللهـو والأنـس، فلـو لم يكونوا يتقبلونها لما ذكرها الشاعر.

إن الـدين وأفكـاره وألفاظـه مندمجـة فـي خيـالات الشـاعر وصـوره وتشـبيهاته، لكـن هـذه الدراسـة تتنـاول مـا ذكـره الشـاعر صـراحة واضـح الارتباط بالدين.

أمـا ابـن زيـدون فهـو أبـو الوليـد أحمـد بـن زيـدون المخزومـي، ولـد فـي عصـر االدولـة الأمويـة وعـرف بعشـقه لـولاد بنـت المسـتكفي، وبعـد سـقوط الدولـة الأمويـة صـار وزيـراً فـي عهـد الجهـوريين، وكـان مقربـاً مـن أبـي الوليـد بـن جهـور الـذي سـاعده علـى فـراره مـن سـجنه فعـاد للـوزارة، وبعـد أن تـولى أبـو الوليـد فـر منـه ابـن زيـدون إلـى إشـبيلية ومـدح المعتضـد والمعتمـد، وسـاعد فـي اسـتيلائهم علـى قرطبـة، وتـوفي بعـد ذلـك بقليـل، كـان مبـدعاً فـي الشـعر والنثر.

(١) الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي، ص٢٧– ٢٨.

المبحث الأول: مظاهر العقيدة والآخرة والعبادة:

المطلب الأول: العقيدة:

ما يعتقده الإنسان من دين هو الذي يوجه مسيره في الحياة، وأهم ما يميز المؤمن عن غيره تصديقه بوجود الله عز وجل وتوحيده، وإيمانه بما أخبر به من غيبيات في قرآنه أو على لسان رسوله ﷺ، وقد تناول ابن زيدون مجموعة من هذه الأمور مثل: الكفر والإيمان، التوحيد والإشراك وغيرها، واستطاع توظيفها التوظيف البديع في سياقها بما أكسب النص تأثيراً وجمالاً.

ذكر ابن زيدون أموراً كثيرة متعلقة بالعقيدة، كالشرك والكفر وضدهما التوحيد، والأصنام ثم ذكر القدر والغيب وغيرها، وقد وظفها بما يناسب السياق، فعندما مدح ابن جهور جعل من ينفي عنه أنه أوحد زمانه في العقل وفعل الطاعات جعله مشركاً، وبذلك فإنه يعد شخصاً مخالفاً للموحدين منبوذاً عنهم، ويكرر الفكرة عندما مدح المعتمد ووالده، ولكن كيف سيجعل شخصين واحداً، وهنا تظهر براعة الشاعر حيث ثنى الواحد وجعلهما (أوحدين) في عمل القربات، ومن لم يقل بذلك فلا يعد من الموحدين.

ولعل النماذج التي يختارها الشاعر من هذا المضمون الروحي تدل دلالة خاصة على نفسية الشاعر ذاته، وتبرز موقفه الخاص وأفكاره بصورة واضحة يؤكدها تضمينه للأفكار والمواقف المنتقاة من صلب التراث الديني الواسعة، ويكون محور الترابط بين الروح الشاعرة ونوعية الانتقاء وتوظيفه، دالة تفتح نوافذ عديدة لمشاعر الشعراء وفكرهم يمكن الولوج إليها عبر تأويل النص(١).

وابن زيدون يُعمِل عقله ويبذل غاية ما يستطيع ليخلص النصح لممدوحه الذي أفرده من دون الناس ولم يشرك معه غيره في الاستشارة، لذلك وجب عليه تقديم نصيحة خالصة لا تشوبها شائبة، وهذا أقل ما يقدمه له.

---

(١) عبد المجيد، مريم، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، ص١١٨.

اتصف ابن زيدون بالوفاء لمن يحسن إليه لذلك قرن عدم شكر إحسان المحسن بالكفر، فعندما هنأ المعتمد بتوليه الملك ذكر أفضال أبيه المعتضد عليه واعتبر أنه إذا لم يشكرها فإنه يكون جديراً بالهلاك والخسران. وتعبيراً عن إحساسه بفضل المعتمد عليه استعمل الشاعر (المِنَنَ – تَترى) والتشديد (تَمَلَّيتُها). { الكامل}

مَن قالَ إِنَّكَ لَستَ أَوحَدَ في النُهى وَالصالِحاتِ فَدانَ بِالإِشراكِ[١]

{المتقارب}

فَمَن قالَ أَن لَستُما أَوحَدَيـ ـنِ في الصالِحاتِ فَما وَحَّدا[٢]

{ الكامل }

جَهدَ المُقِلِّ نَصيحَةً مَمحوضَةً أَفرَدتَ مُهديها فَلا إِشراكا[٣]

{ االطويل }

لَئِن كُنتُ لَم أَشكُر لَكَ المِنَنَ الَّتي تَمَلَّيتُها تَترى لَأَوبَقَني الكُفر[٤]

من المقاييس التي اتخذها ابن زيدون في مدح ملوك الطوائف جهادهم لأعداء الله الذين يعبدون الأصنام والأوثان. { المتقارب }

وَجاهَدَ في اللَهِ حَقَّ الجِها دِ مَن دانَ مِن دونِهِ بِالصَنَم[٥]

ويختم إحدى قصائده بحمد الله وأنه لا شريك له، لقد جاء الشاعر بعبارة نفي الإشراك في موضعها المناسب، فهو يرد على من أرسل له قصيدة يسأل عن حاله لمرض أصابه، فيؤكد له ابن زيدون أن الشفاء بيده عز وجل وحده الذي يتابع عليه النعم أما الدواء فما هو إلا سبب من الأسباب. { المنسرح }

---

(١) الديوان، ص٣٤٩ .

(٢) الديوان، ص٢١٨ .

(٣) الديوان، ص٤٤٤ .

(٤) الديوان، ص٥٦٨ .

(٥) الديوان، ص٤١٤ .

فَالحَمدُ لِلَّهِ لا شَريكَ لَهُ إن بَدَأَ الطَولَ مُنعِماً شَفَعَه[١]

بل إن ابن زيدون يوظف الكفر والإيمان في مجال الغزل فيجعل هذه الجارية التي يتغزل بها أنها صنم من فضة متوجة بتاج من ذهب، فهي بيضاء البشرة صفراء الشعر تامة الخلقة، ومعلوم أن الصنم لا يتغير فجمالها ثابت دائم، ثم يختم قصيدته بجعل هذه المحبوبة آخر محبوباته وأنها الأفضل، حيث إنها نسخت وأبطلت حب جميع المحبوبات التي قبلها وأثبتت حبها فقط، مثلما ينسخ الإيمان الكفر، إن الشاعر بهذه الصورة يريد التأكيد على ثبات جمال المحبوبة وأن حبها أنساه ما كان قبلها من غراميات. وليس بدعاً أن نجد ما يتعلق بالغزل يدرج في تراثه الديني فالغزل في ديوان ابن زيدون يستغرق الثلث تقريباً سواء كان غزلاً تقليدياً في مقدمة المدائح أم غزلاً مستقلاً مقصوداً لذاته[٢].{البسيط}

مِن حُبِّ جارِيَةٍ يَبدو بِها صَنَمٌ مِن اللُجَينِ عَلَيهِ تاجُ عِقيانِ[٣]

{البسيط}

حَتّى تَكونَ لِمَن أَحبَبتُ خاتِمَةً نَسَختُ في حُبِّها كُفراً بِإيمانِ[٤]

يشف ابن زيدون في نصوصه عن تسليمه أمره **لقدر الله** عز وجل كما هي عقيدة المؤمنين، فهو راض بما نزل به من سجن على يد ابن جهور الأب، فبر أبي الحزم (الابن) بأبيه وإرضائه له شغله وأخره عن إخراج ابن زيدون من سجنه، وهذا كله قدر من الله عز وجل. وهو لا يجد في نفسه على القدر، بل من تسليم ابن زيدون يذكر الغيب، والله وحده يعلم ما يخبئه الغيب للإنسان من خير لا يعلمه، ولكنه يفوض أمره لله. فـ"من تجليات التأثر والآليات الفنية التي تعتبر من مظاهر

(١) الديوان، ص٢١٠ .

(٢) الديوان، ص٧٤ .

(٣) الديوان، ص١٩٢ .

(٤) الديوان، ص١٩٢ .

الأصالة في الإبداعات الأدبية هو تواجد التراث فيها بأنواعه المختلفة"[١]. { مجزوء الكامل }

وَإِن يُثَبِّط أَبا الحَزمِ الرِضى قَدَرٌ عَن كَشفِ ضُرّي فَلا عَتَبٌ عَلى القَدَرِ[٢]

{ الطويل }

وَلِلَّهِ فينا عِلمُ غَيبٍ وَحَسبُنا بِهِ عِندَ جورِ الدَهرِ مِن حَكَمٍ عَدلِ[٣]

وفي موطن آخر نجد ابن زيدون يهزل ويتعلل بالقضاء والقدر، وأن وقوعه في حب غانية أمر مقدر من عند الله لا يستطيع له دفعاً، والشاعر لا يستخدم أسلوب النفي وإنما يستخدم أسلوب الاستفهام للتأكيد على عدم دفع الإنسان القدر، ونلاحظ استعمال الشاعر للفعل المبني للمجهول (قُدِرَت)، فهو لا خيار له، ولم يشددها بل جعلها مخففة دلالة على سرعة وقوعه في الحب، وكرر كلمة القدر لسطوته واستحكامه بأمر الله. { البسيط}

ما كانَ حُبُّكَ إِلّا فِتنَةً قُدِرَت هَل يَستَطيعُ الفَتى أَن يَدفَعَ القَدَرا[٤]

يذكر ابن زيدون لو أن القدر وقف حائلاً بينه وبين رضا أبي الوليد فإنه عزيز النفس حر لا يضره سخطه، وإن أراد أبو الوليد الصفح عنه وإيضاح سبب غضبه والسماع من ابن زيدون فإن ابن جهور جدير بذلك، والشاعر يقف موقفاً معتدلاً فهو يذكر الاحتمالين ويترك للحاكم الخيار. { الطويل}

فَإِن عاقَتِ الأَقدارُ فَالنَفسُ حُرَّةٌ وَإِن تَكُنِ العُتبى فَأَحرِ بِها أَحر[٥]

يختم ابن زيدون قصيدته مخاطباً أبا الحزم بصورة طريفة، فهو يدعو الله عز وجل أن يسير القدر على ما يريد أبو الحزم ويشتهي، مع علمه وإيمانه أن قدر الله

(١) أصفهاني، محمد، التراث الديني في شعر سميح القاسم، ص١.

(٢) الديوان، ص٢٥٥ .

(٣) الديوان، ص٢٦٤ .

(٤) الديوان، ص١٧٤ .

(٥) الديوان، ص٢٩٦ .

لا يمكن تغييره وتبديله. ويظهر في البيت الحضور القوي للحاكم فقد ذكره بضمير المخاطب مرتين، بينما ذكر القدر بضمير الغائب بعد أن صرح به. { الكامل}

وَأَرَادَ فِيكَ مُرَادَكَ القَدَرُ الَّذِي لَا نَسْتَطِيعُ لِحُكْمِهِ تَعْقِيبَا[١]

يوظف ابن زيدون **علامات الساعة** للدلالة على ذهوله في الحب والعشق، فالمحبوبة جميلة كالشمس ومطلعها المغرب بلاد الأندلس، وعندما تطلع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة ويتمنى الناس التوبة ويتذكرونها، لكن ابن زيدون رغم طلوع الشمس (المحبوبة) من المغرب إلا أنه ناسٍ للتوبة ولا يتذكرها. ابن زيدون يصر على عدم توبته عن محبوبه، فهو على الرغم من قلة كتابته لمحبوبه فإنه لم يختر غيره بل إن قلبه متعلق به ولن يرجع عن حبه له. { السريع }

أَنسانِيَ التَوبَةَ مِن حُبِّهِ طُلوعُهُ شَمساً مِنَ المَغرِبِ[٢]

{ الطويل}

فَلا تَحسَبوا أَنّي تَبَدَّلتُ غَيرَكُم وَلا أَنَّ قَلبي مِن هَواكَ يَتوبُ[٣]

يستلهم ابن زيدون **البعث والنشور** في فكرة وصل المتحابين وهجرهم، بل حتى إن محقق الديوان عنون القصيدة ب (موت ونشور)، فالشاعر يرى أن هجران الحبيب وفراقه موت ونزع للروح، وإذا رجع الوصل رجعت الحياة، فهنا اتصال وانفصال، فإذا تم الانفصال بين المتحابين انفصلت الروح، وإذا تم الاتصال عادت الروح كأنما خرج الإنسان من قبره. { البسيط}

قَومٌ إذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِلُوا مَاتُوا فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهْوُونَهُ بُعِثُوا[٤]

إن هاجس **التوحيد** الذي يتحرك به الشاعر في نصوصه يجعله يستخدمه في صوره، فالثناء لأصحاب الفضل عليه وأصحاب الطاعات والعقول وأنهم متميزون لا

---

(١) الديوان، ص٣٣١ .

(٢) الديوان، ص١٢٦ .

(٣) الديوان، ص١٨٦ .

(٤) الديوان، ص١٧٦ .

يشركهم أحد في هذه الصفات، فكذلك ولي أمر المسلمين لا يكون إلا واحداً، ومن يعتقد غير المعتضد أميراً للمؤمنين فإنه يكون كمن ينكر الركن الرابع من الإيمان، وهو الإيمان بالرسل، وكمن ترك الشطر الثاني من الركن الأول من أركان الإسلام وهو التصديق بنبوة النبي محمد ﷺ، بل كأنه آمن بنبوة سجاح التي أجمع الصحابة على حربها، وهذه مبالغة في التصوير وتوظيف غير صحيح للدين. إن موضوع طاعة ولي الأمر دين يعتقده ابن زيدون؛ لأنه يرى من خلاله توحيد صف المسلمين ولذلك عندما حرض المعتمد على الاستيلاء على قرطبة كان من هذا الباب، ولرغبته العودة إلى مدينته الحبيبة قرطبة، وهو يؤكد على ذلك في شعره، فيخاطب المعتمد بأن امتثال أمره واجب، بل هو آكد الفروض؛ لأن به تصلح أحوال الأمة، فامتثال أمره هو المنهج والمورد الذي صار عادة ملازمة لداخل الإنسان وخاطره، فهو لا يتصنع الطاعة ولا يتكلفها وإنما يقوم بها عن يقين واعتقاد.

فمن خالف أمر الحاكم يعتبر شاقاً لوحدة المسلمين عادلاً عن طريق الحق والصواب، ثم ينزه نفسه ابن زيدون أن يكون مخالفاً لطريق الهدى والرشاد وهو طريق الله المستقيم، وهو لزوم جماعة المسلمين، فلن يصرفه الكفر عن ظاهره من الطاعة؛ لأنها مستقرة في ضميره. ف"الإنتاج الأدبي الأصيل مكان تجتمع فيه بؤر ثقافية متعددة، ولا مناص للأديب منه؛ لأن الكاتب في أصله قارئ يختزن في ذاكرته ما تعلمه من الثقافات المختلفة، فتتشكل لديه خلفية ثقافية يوظفها أينما سنحت فرصة للتعبير عما يريد نقله إلى القارئ[1]."{الوافر}

وَمُعتَقِدُ الرِياسَةِ في سِواهُ كَمُعتَقِدِ النُبُوَّةِ في سَجاحِ[2]

{ المتقارب}

وَطاعَةُ أَمرِكَ فَرضٌ أَرا هُ مِن كُلِّ مُفتَرَضٍ أَوكَدا

(١) أصفهاني، محمد، التراث الديني في شعر سميح القاسم، ص٢.

(٢) الديوان، ص٤٣٣ .

هِيَ الشَرعُ أَصبَحَ دينَ الضَميرِ فَلَو قَد عَصاكَ فَقَد أَلحَدا
وَحاشايَ مِن أَن أَضِلَّ الصِراطَ فَيَعدونِيَ الكُفرُ عَمّا بَدا[1]

إن ما ذكره ابن زيدون في العقيدة ينم عن عقيدة صحيحة صافية في أمور ضلت فيها بعض الفرق، وهو يذكرها بأساليب مختلفة تأكيداً على قناعته بها، وإن كان قد بالغ في التصوير لها. ومما يرتبط بالعقيدة الإيمان باليوم الآخر، وهذا ما يتناوله المطلب التالي.

المطلب الثاني: الآخرة:

إن حضور الآخرة في ذهن وخلفية ابن زيدون جعله يبدع في تصويرات تؤكد أفكاره، ومما يرتبط بالعقيدة ما يتعلق بالآخرة وما فيها من غيبيات، فذكر الجنة ونعيمها والنار وجحيمها، والشفاعة والحشر والقيامة ومواقفهما.

لقد ذكر ابن زيدون من مظاهر الآخرة **الجنة** كثيراً، واقترن ذكرها برضا الحاكم عنه ووصل من يحب، والعكس بالعكس، فإن حصلت القطيعة والهجر فهو العذاب الأليم.

فيستغل ابن زيدون إذن المعتمد له التنزه في إحدى حدائقه ويعدد نعمته عليه أن هيأ له المكان ومكنه التجول فيه كما يشاء، ويرضي من غرور الحاكم بأن يجعل حديقة الدنيا مساوية لجنة عدن الآخرة، وفي هذا مبالغة في الخيال وتملق للحاكم، وأن الشاعر تجول فيها جيئة وذهاباً وحاول –وهو الشاعر المتمكن– أن ينظم شعراً يصف هذا الجمال فلم يتمكن من وصفها، بل إن الشعر ضاع منه في هذا الموضع لجمال المكان، إن تعبير الشاعر بالضلال يدل على الذهول الذي أصابه لجمال المكان إضافة إلى كبره فالأشياء لا تَضل إلا في الأماكن الواسعة. { الخفيف}

بَوَّأَتني نُعماكَ جَنَةَ عَدنٍ جالَ في وَصفِها فَضَلَّ القَريضُ[2]

(١) الديوان، ص٢١٦ .
(٢) الديوان، ص٢٣٩ .

إن ابن زيدون على يقين أن متاع الدنيا فان زائل، لذلك يربط متاع الدنيا بنعيم الآخرة فيعلق القلوب بها، ودليل ذلك أنه ختم قصيدته التي أرسلها لابن جهور وهو في السجن بالدعاء له، فكما نعم في الدنيا بجنان قرطبة وبساتينها الزائلة، فيسأل الله أن ينعم عليه كذلك في الآخرة بجنان الخلد الدائمة وأنهارها بعد عمر طويل، والأمر ذاته صنعه مع صديقه أبي عامر بن مسلمة عندما زاره ووجده يبني داراً، فدعا للمجلس وصاحبه بطول العمر ثم يُبَدَّل خيراً من داره المحدودة الأطراف عدناً مقاماً موطئاً خالداً، ليس مفروشاً بالأقمشة بل بالسندس. وتنكير (عدناً) تشير إلى اتساع المكان وعدم محدوديته ودوام الخلد وعدم انقطاعه كما في الدنيا. { البسيط}

نَعيمَ جَنَّةِ دُنيا إِن هِيَ اِنصَرَمَت نَعِمتَ بِالخُلدِ في الجَنّاتِ وَالنَهَرِ[1]

{ السريع }

وَبَعدَ ذا عُوِّضَ عَن دارِهِ عَدناً وَمِن ديباجِهِ السُندُسا[2]

لم يحب الشاعر النساء فقط بل شغلت قرطبة حيزاً كبيراً من عشقه وغرامه، فذكر متاعه وسروره فيها والعكس في خروجها منها، فالمكان يشكل إيحاءً خاصاً، في موشحته، رأى بساتين (الزهراء) وأنهارها أنها هي جنة الخلد وكوثرها، فهي علاج الأجسام والأرواح، فمن يرى جمالها يطول عمره وتنشرح نفسه.

"يسعى الشاعر من خلال استدعاء المكان إلى خلق فني للمكان فهو لا يسعى إلى تصوير ذلك المكان أو ذكر صفاته وحقائقه بل يعمل على إعادة خلقه من جديد مستلهماً كل إيماءات ذلك المكان وما تفوح منه من دلالات تغني فكرة الشاعر وثقافته الشعرية فالمكان لدى الشاعر (لا يقتصر على كونه أبعاداً هندسية وحجوماً ولكنه

(١) الديوان، ص٢٦١ .

(٢) الديوان، ص٢٢٧ .

فضلاً عن ذلك نظام من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية والمحسوسة بقدر ما يستمد من التجرد الذهني) "[١].

لقد كانت ولادة هي السرور والنعيم، والبعد عنها الخروج من النعيم إلى الجحيم من الجنة إلى النار، فصار ما يراه ويستظل به هو شجر الزقوم "شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم"[٢]، ويأكل ثمرها، وهو الغسلين، فيأكل الرديء بدل الثمر الحسن الجيد.} الطويل {

وَجَنَّةِ عَدنٍ تَطَّبيكَ وَكَوثَرِ بِمَرأىً يَزيدُ العُمرَ طيباً وَيَنسَأُ[٣]

{البسيط}

يا جَنَّةَ الخُلدِ أُبدِلنا بِسِدرَتِها وَالكَوثَرِ العَذبِ زَقّوماً وَغِسلينا[٤]

جاءت نصوص ابن زيدون متكئة على معالم الآخرة في الفرح والسرور ووظفها في مواطن الحزن والرثاء، ليجعل الحزن يتبدل إلى فرح وأمل بالله عز وجل، فعندما رثى أم المعتضد ذكر أن سريرها حمله الكثير من الملائكة ولذلك نوع في صيغة الجمع (أملاك) و (ملائك)، وليس أي ملائكة بل البيضاء النيّرة الحسن، حملتها وأحاطت بها متتابعة حتى أوصلتها إلى أفضل الجنان وأعلاها وهي الفردوس، إن الشاعر يلتجئ "إلى التراث كمجال لإبداعاته الشعرية ووسيلة لتوليد دلالات جديدة[٥].{الطويل }

---

(١) الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي، ص١٨٦ – ١٨٧، نقلاً عن: عثمان، اعتدال، إضاءة النص – قراءات في الشعر العربي الحديث، ط٢، الهيئة المصرية العانة للكتاب، ١٩٩٨م، ص٧ .

(٢) ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ط٦، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، ١٢/٤ .

(٣) الديوان، ص١٣٥ .

(٤) الديوان، ص١٤٦ .

(٥) أصفهاني، محمد، التراث الديني في شعر سميح القاسم، ص٣.

سَريرٌ بِأَملاكٍ وَزُهرِ مَلائِكٍ إلى جَنَّةِ الفِردَوسِ راحَ مُشَيَّعا[١]

إن شعر ابن زيدون تمثيل واقعي لحياته، وقد استثمر معرفته الدينية في عكس ذلك على شعره، فقد شبه حياته في ظل المعتمد وكنفه وكأنها الجنة، لكن أحاط بها الحساد والوشاة الذين يريدون إخراجه منها، كما حسد إبليس أبانا آدم #. والجملة المعترضة (لي) تشي بالتجاء واعتصام الشاعر بهذه الحياة التي في كنف المعتمد. {المتقارب}

كَأَنَّهَا لِي جَنَّةٌ حُفَّتْ بِمَكْرُوهِ الحَسَدْ[٢]

إن رضا ولي الأمر نعيم للإنسان، وغضبه عذاب عليه، لذلك جعل ابن زيدون الجحيم والعذاب يتسعر ويزداد لمن يعصيه، أما من يطيع أوامره فيكون له جنة مقربة ومنزلة عالية، وقد بنى الفعلين للمجهول (يُشَبُّ – تُزلَفُ) دلالة أن الذي يتعامل مع الحاكم هو الذي يختار إما النعيم وإما الجحيم بطريقة تعامله، وتعامل الحاكم معه ما هو إلا نتيجة لاختياره. { الطويل}

جَحيمٌ لِعاصيهِ يُشَبُّ وَقودُهُ وَجَنَّةُ عَدنٍ لِلمُطيعينَ تُزلَفُ[٣]

وظف ابن زيدون التراث الديني في شعره حسب مقتضيات الموقف الذي يتحدث عنه ولم "يتخذ نمطاً مكرراً وإنما يميل كل نص وموقف إلى التفرد، سواء بالصياغة أو التوظيف المعنوي"[٤].

ومما ذكره ابن زيدون من الموروث الديني المرتبط بالآخرة **الشفاعة**، فعندما رثى أم المعتضد ذكر أنه في نهاره يقوم بأعمال الملك خير قيام ويؤدي حقه، وفي المساء فإنه يكون خير ابن لأمه حيث يدعو لها ويستغفر ويطلب لها غفران الذنوب،

---

(١) الديوان، ص٥٥١ .

(٢) الديوان، ص٦٠٥ .

(٣) الديوان، ص٤٨٩ .

(٤) عبد المجيد، مريم، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، ص١١٩.

وعمله هذا هو الذي يقدمه شفيعاً لها في آخرتها، وفي ذات الوقت عمله هذا يكون مشفعاً له؛ لأنه قام ببر أمه بالدعاء لها.{الطويل}

تَروحُ أَميراً في التِلادِ مُحَكَّماً وَتَغدو شَفيعاً في الذُنوبِ مُشَفَّعا[1]

إن الشاعر يعبر من خلال فضاءات أبياته عن الدرجة والمكانة العالية في الآخرة لمن يتحدث عنه، فعندما عزى المعتضد في ابنته وصفها بأنها اتصفت بالعديد من صفات الصالحين من التقوى والخشوع والصفات الفاضلة والطهارة والصلاح، ولذلك استحقت دخول الجنة والتمتع الكامل التام بنعيمها وأهمه الكوثر، فستشرب منه كثيراً ماءً عذباً مروياً مذهباً للظمأ، وبما أنها تقية فإنها تستحق رؤية ومجاورة الأتقياء مثلها سعداء الآخرة الذين بلغوا أعلى الدرجات في الجنة لأنهم من الشهداء. {مجزوء الرمل}

جَمَعَت تَقوى وَإِخبا تاً وَفَضلاً وَزَكاءَ
سَتُوَفّى مِن جِمامِ الكَو ثَرِ العَذبِ رَواءَ
حَيثُ تَلقى الأَتقِياءَ السُ عَداءَ الشُهَداءَ[2]

يحاول الشاعر أن يستلهم أبعاد المكان الرمزية ومن ثم توظيفها في تجربته الشعرية بطريقة فنية إبداعية عن طريق مزج المكان بخيال الشاعر ومن ثم صياغته في لغة شعرية إبداعية تخلق مكاناً يتناسب مع العمل الفني متجاوزاً فيه الواقع إلى عالم الخيال[3]. ولذلك وظف ابن زيدون موقف **الحشر** للقاء الأحباب، في نونيته الشهيرة التي ذكر فيها ولادة، فإن كان تعذر عليه أن يجتمع بولادة مرة أخرى في الدنيا، فإن لديه موعداً أكيداً سيلقاها فيه وهو يوم القيامة، وهذا فيه غناء، ويُدخل على قلبه الرضا والقناعة.

(١) الديوان، ص٥٥٦ .
(٢) الديوان، ص٥٦١ .
(٣) الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي، ص١٨٧ .

"ويمتد البعد المكاني في النص ليضفي رؤى أكثر أصالة وقدم، ليتحدث من خلال هذا البعد الراقي في سمو الأشياء في المكان الذي يمتلك في ذاته كوامن راقية لأبعاد روحية عليا"(١).

وفي تعزيته للمعتمد عند فقد المعتضد، ذكر أن فراقه ملأ قلوبهم وعقولهم حزناً عليه، وهذا المكان الذي تركه خالياً سيختفي ويتوارى بلقائه، لكن ليس بعودته إلى الحياة الدنيا وإنما بلقائه يوم القيامة.{البسيط}

إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِي الدُنْيَا اللِّقَاءُ فَفِي مَوَاقِفِ الحَشْرِ نَلْقَاكُمْ وَيَكْفِينَا(٢)

{ الطويل}

أَما إِنَّهُ شُغلٌ فَراغُكَ بَعدَهُ سَيَنصاتُ إِلّا أَنَّ مَوعِدَهُ الحَشرُ(٣)

وفي يوم الحشر تعرض أعمال العباد على الله، فعندما رثى صديقه القاضي ابن ذكوان خاطبه خطاب الحي بضمير المخاطب (لك)، وأن له الأعمال الصالحة الكثيرة، ويتبعها بالصدق والطاعة، وهذه الصالحات سيجدها يوم العرض فتنجيه من الأهوال بإذن الله. ولذلك وجدنا الشاعر في تعزيته لأبي الوليد في أمه يدعو لها بتتابع وبقاء السلام عليها من الله، وأن يعطر الريحان الحسن الرونق قبرها بمغفرة الله ورضوانه.{الكامل}

لَكَ صالِحُ الأَعمالِ إِذ شَيَّعتَها بِالبِرِّ ساعَةَ تُعرَضُ الأَعمالُ(٤)

{الطويل}

عَلَيها سَلامُ اللَهِ تَترى تَحِيَّةً يُنَسِّمُها الغُفرانَ رَيحانُها النَضرُ(٥)

---

(١) عبد المجيد، مريم، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، ص١٣٤.

(٢) الديوان، ص١٤٦ .

(٣) الديوان، ص٥٦٨ .

(٤) الديوان، ص٥٣٧ .

(٥) الديوان، ص٥٤٤ .

إن الشاعر ينتزع صوره من **مشاهد القيامة** لحضورها في ذهنه وذهن من يخاطب، فعندما عزى المعتضد في وفاة ابنته ذكر مشهداً من مشاهد القيامة وهو زوال السماوات ومن فيها فضلاً عن الأرض ومن فيها، فلا يبقى إلا الواحد القهار، وذلك كله بمشيئته وقدرته عز وجل، فلا يبقى في قلبك حزن على فراق ابنتك.{مجزوء الرمل}

وَسَيَفنى المَلَأُ الأَعـ ـلى إِذا ما اللَهُ شاءَ[1]

وطبعي بما أنه ذكر الفناء أن يذكر الخلود، في الدنيا الخلود بذكر المفاخر والمأثر، وفي الآخرة المكان المرغوب الجميل الجنة (دار الخلود) إليها المرجع لأننا خرجنا منها.{الطويل}

سَيَخلُدُ في الدُنيا بِهِ لَكَ مَفخَرٌ وَيَحسُنُ في دارِ الخُلودِ مَآبُ[2]

إن مظاهر الآخرة التي ذكرها ابن زيدون تنوعت بين ذكر الجنان والجحيم، ومواقف الحشر ومن سيلقاه الإنسان فيها ونتفاً من مشاهد يوم القيامة.

(١) الديوان، ص٥٦٠ .

(٢) الديوان، ص٣٨٠ .

المطلب الثالث: مصطلحات العبادة والشعائر الإسلامية:

العبادة بمفهومها الشامل أعظم وسيلة لكسب المسلم الحسنات، فهي لا تقتصر على الشعائر التعبدية فقط، بل هي تشمل جميع أمور الحياة، وفوائدها لا تقتصر على الحسنات فقط بل تتعدى ذلك.

إن أكثر ما ذكره ابن زيدون في شعره من التراث الديني ما يتعلق بالعبادات، وهذا أمر طبعي فالمتأمل في أحوال الناس حتى اليوم يجدهم يسألون ويتحدثون عن أمور العبادات، وهي الأكثر والألصق بحياة الإنسان اليومية.

وأول ما نبدأ به **التوبة**، وهي مما يحتاج الإنسان أن يجدده كل يوم ويكثر منه، لكن ابن زيدون يرفض التوبة وينفي أن تكون خالصة صادقة، فما السبب؟! إنه لا يريد التوبة عن حب محبوبته، بل المعروف أن التائب يزول عنه العذاب لكن ابن زيدون يدعو بالعذاب على هذا التائب عن عشقه ويستخدم أسلوب القصر ألا يُعذَب سواه، فالشاعر يستغل عنصر صدم المتلقي بما يصدره من أحكام غريبة، ويجعل هذا البيت آخر بيت في القصيدة وكأنه لا يجعل مجالاً لمناقشة هذا الأمر فهو قرار نهائي لا رجعة فيه.

وفي قصيدة أخرى كذلك يختم قصيدته التي تحدث فيها عن هجر المحبوب ولومه له وأن هذا المحبوب لو تاب وحاول العود له والوصل فإن ابن زيدون لن يقبل ويستبعد قبول رجوعه، ويستخدم لذلك (قد) وأتبعها الفعل المضارع فأفادت التقليل.

وعندما هنأ الممدوح بالعيد وصفه أنه مستمر في طاعته وعبادته، حيث اعتكف في رمضان وحظي بالخشوع والخضوع لله، وصدف منه الانقطاع للعبادة، وأكثر من الإخلاص لله حتى وصل الغاية والكمال، وسلمت توبته من النقص، وتشديد حرف الحاء تأكيد على صدق هذه التوبة (وَصَحَّ)، و (متاب) الاسم إشارة إلى دوامها والثبات عليها.{البسيط}

ما تَوبَتي بِنَصوحٍ مِن مَحَبَّتِكُم لا عَذَّبَ اللَهُ إِلّا عاشِقاً تابا[١]

{الرجز}

قَد يَنفَعُ المُذنِبَ أَن يَتوبا[٢]

{الطويل}

لَقَد جَدَّ إِخباتٌ وَحَقَّ تَبَتُّلٌ وَبالَغَ إِخلاصٌ وَصَحَّ مَتابُ[٣]

والتوبة لا تكون إلا من ذنب، فمتى ذكر ابن زيدون **الذنوب**، لقد ذكرها في ختام إحدى قصائده نافياً عن نفسه أن يكون قد اقترف خطأ يستوجب أن تَحمل محبوبته في قلبها غلاً عليه، ولكن المحبوبة من طبعها أن تدعي على غيرها الذنوب والأخطاء كذباً وبهتاناً. وحذف حرف العلة من (أجن) تأكيد يشف في النص عن نفي الذنوب عنه.

وإن كان الشاعر نفى عن نفسه الذنب فإنه في موطن آخر نفاه عن محبوبه، فالوشاة اتهموا المحبوب أنه تغير عليه، وما ذاك إلا لذنب اقترفه، وظنوا أن هذا الادعاء الكاذب سيفسد العلاقة بينهما ولن يغفره ابن زيدون.

ويلاحظ التشابه في البيتين في تكرر اقتراف الذنب (أجن–جنيت) وتكرار ادعاء الذنب على من لم يفعله (التجني)، "إن هذا المكرر يمثل مركز ثقل للحالة الشعورية التي يعيشها الشاعر"[٤].{الوافر}

وَلَم أَجنِ الذُنوبَ فَتَحقِديها وَلَكِن عادَةٌ مِنكِ التَجَنّي[٥]

---

(١) الديوان، ص١٢٤ .

(٢) الديوان، ص١٥٧ .

(٣) الديوان، ص٣٨٠ .

(٤) الحيالي، نادية فتحي هادي حمادي، دلالة التكرار في نونية ابن زيدون، آداب الرافدين، العدد: ٨٦، ١٤٣٥هـ– ٢٠١٣م، ص١٥٠. نقلاً عن: السوداني، ثامر خلف، وهج العنقاء: دراسة فنية في شعر خليل الخوري، ص٦٠ .

(٥) الديوان، ص١٦٦ .

{مجزوء الكامل}

وَتَوَهَّموكَ جَنَيتَ ذَنباً بِالتَجَنّي لَيسَ يُغفَر[1]

وفي البيت الثالث الذي ذكر فيه الذنب، جاء في مطلع قصيدة أجاب بها المعتمد في فك معمى أرسله له، واعتبر أن أخطاء عمره مسامح عليها لأنه اتصل بالمعتمد، فنصيبه الذي قدره الله له كثير وعظيم.

حَظّي مِن نُعْمَاكَ مَوفُورُ وَذَنْبُ دَهرِي بِكَ مَغْفورُ[2]

يلاحظ أن ابن زيدون جعل الذنب جمعاً في الموضع الأول عندما تحدث عن نفسه (الذنوب)، وكأنه يشير إلى أن الخطأ منه وارد لكنه لم يصل حد الكثرة التي تستوجب أن تَحبس المحبوبة عداوته في قلبها وتتربص للانتقام منه، بل قد يكون منه الخطأ أو الاثنان التي لا تستوجب ذلك. وفي البيت الثاني عندما نفى الذنب عن المحبوب جعله (ذنباً) واحداً ونكرة تحقيراً وتقليلاً من شأنه. وفي الموضع الثالث أضاف الذنب إلى دهره، فأكبر ذنب فعله في عمره فإنه يغفر بسبب اتصاله بالمعتمد.

ومن مظاهر العبادة التي ذكرها ابن زيدون **(التأمين على الدعاء)**، وقد عبر بها عن فطرة بشرية تصيب الإنسان، وهي دعاؤه في ساعة الغضب وشدة الغيظ على من يحب، لكن الشاعر توجه بشكواه ودعائه إلى أمر معنوي وليس أمراً محسوساً وهو العشق، ولم يصرح بالمحبوب وإنما أضمره؛ ولأنه لم يصرح باسم المحبوب فقد أجابه الهوى وبادر سريعاً بالتأمين وأن يقبل الله دعاءه.

وفي عدول الشاعر واختياره لمفردة الهوى دون غيرها دلالة على السقوط والانحدار وراء غيظه وغضبه.

إن كان ابن زيدون نسب التأمين في بيته الأول للهوى، ففي نونيته الشهيرة نسبه للدهر، وإن كان الداعي في الموضع الأول ابن زيدون فالداعي في الموضع

---

(١) الديوان، ص١٧٣ .

(٢) الديوان، ص٦٢٠ .

الثاني الكارهين لابن زيدون؛ لأنه يتبادل شرب العشق مع محبوبته ولادة، فدعوا عليهما أن يشرقا بعشقهما فأمن الدهر على ذلك، وتم.{الكامل}

وَلَقَد شَكَوتُكِ بِالضَميرِ إِلى الهَوى وَدَعَوتُ مِن حَنَقٍ عَلَيكِ فَأَمِنّا[1]

{البسيط}

غيظَ العِدا مِن تَساقينا الهَوى فَدَعَوا بِأَن نَغَصَّ فَقالَ الدَهرُ آمينا[2]

إن الشاعر يستلهم صوره من أركان الإسلام الصلاة والصوم، فينظر في الصلاة وما يقارنها قبلها وبعدها، فيخاطب ابن زيدون المعتمد في القصيدة التي يعزيه فيها بوفاة والده مؤكداً له أنه مسيرة خير وعطاء بعد وفاة والده، ويستخدم لذلك صورة دينية يومية، فالمعتمد أنفذ وأتم الواجب عليه على أكمل وجه، فالتشديد وصعوبة نطق الحروف أفادت ذلك (فَقَضَيتِ)، فأدى الصلاة خالصة لله وليس عن اضطرار وحاجة، كالصلاة التي يؤديها المسلم خالصة لله، يقضي حاجاتهم ويحقق آمالهم، والصلاة يتبعها التطوع لله، وكذلك المعتمد يُتبع أعمالَه الخيرَ والفلاحَ والتطوع، وكما يسبق الصلاة الطهر كذلك المعتمد سبقه أبوه بتحقيق الآمال وإنجاز الأعمال، فالمعتمد عطفٌ وتبع لأبيه، وأتبع المعتمد الفرض تطوعاً تقرباً لله، وسبق أداءَ الفرضِ النفلُ المتتابع وهو في قمة النقاء ظاهراً وباطناً، لقد كان يكثر من الطاعات ويتابع بينها ويعطف بعضها على بعض، ويعتبرها هدية له وغنيمة، وصحيح أن هذا متعب ومجهد له لكنه مثل الصيام تعب وجهد لكنه عند الفطر يذهب التعب ويبقى الأجر والثواب.{الطويل}

فَقَضَيتَ مِن فَرضِ الصَلاةِ لُبانَةً مُشَيِّعُها نُسكٌ وَفارِطُها طُهرُ

وَمَن قَبلُ ما قَدَّمتَ مَثنى نَوافِلٍ يُلاقي بِها مَن صامَ مِن عَوَزٍ فِطرُ[3]

---

(١) الديوان، ص١٩١ .

(٢) الديوان، ص١٤٢ .

(٣) الديوان، ص٥٧٢ .

ومن الأمور التي ذكرها ابن زيدون ما يتعلق بمظاهر **الصلاة**، ومن أبرزها السجود، فهو يطلب من محبوبته أن تعود إلى ما كانت عليه من الوصل والرضا وترك الهجر والكره له، حتى يكون أول المقبلين عليها الطائعين لها، والصورة التي استخدمها ربما تستبشعها النفس المؤمنة؛ لأنه جعل نفسه يسجد لها، وهي مبالغة غير مقبولة، ولكنه يضرب هذا المثل مذكراً بمثل الملائكة الذين أطاعوا الله عز وجل وكانوا أول الساجدين المطيعين لأمر الله وليسوا كالشيطان الذي أبى وتكبر. {الكامل}

وَضَعي قِناعَ السَخطِ عَن وَجهِ الرِضا كَيما أَخِرَّ إِلَيهِ أَوَّلَ ساجِدِ[1]

وعندما مدح ابن جهور مدحه بأنه رعى الدين وحرسه، ولولاه لقل حماته وحافظوه، واطمأن الناس إلى رعايته للدين وسعدوا بها فلا يجدون وحشة، فهم مقبلون على العبادات من قيام وسجود وركوع باطمئنان، وقد استخدم لها الاسم اسم الفاعل دلالة على الاستمرار والدوام وتحقق وقوعها (قائِمٍ أَو ساجِدٍ أَو راكِعِ).{الكامل}

يا أَيُّها المَلِكُ الَّذي حاطَ الهُدى لَولاكَ كانَ حِمىً قَليلَ المانِعِ
أَنِسَ الأَنامُ إِلَيكَ فيهِ فَهُم بِهِ مِن قائِمٍ أَو ساجِدٍ أَو راكِعِ[2]

وعندما عزى أبا الوليد بن جهور في أمه وصفها بعدة صفات دينية، وهذا ما يليق بالمقام فهو يذكر صفات متوفاة، فوصفها بطهارة الثوب كناية عن العفة، وهي أعز ما تفخر به امرأة، وهي عندما تصلي الضحى تصليها بخشوع، والمعروف أن يقال قانت الليل لكن الشاعر جعلها قانتة الضحى؛ فمن المعلوم أن الضحى وقت العمل وانشغال الإنسان ومع ذلك هي تلقي مشاغل الدنيا وراء ظهرها وتقبل على ربها خاشعة منيبة، ولسانها لا يفتر عن ذكر الله وتسبيحه، فهي تذكره في جميع الأوقات ولم يخصص تسبيحها بليل أو نهار، وهي لإخلاصها في عبادتها جعلت

(١) الديوان، ص١٦٤ .
(٢) الديوان، ص٤٠٤ .

مكان صلاتها ليس ظاهراً وبارزاً أمام الناس وإنما مكاناً خفياً جعلت عليه ستراً لا يراها فيه أحد، لتختلي بمناجاة ربها عز وجل.

وكأن ابن زيدون خصص المحراب والخدر في رثاء النساء، فقد ذكره كذلك عندما رثى أم المعتضد فجعلها مصدر هداية وتقى فهي شمس، لكن قدر الله النافذ على جميع الخلق جعل مغرب هذه المرأة التقية عند حلول المساء هو القبر وليس جهة الغرب، وكان مكان تعبدها المتخفي المنعزل مصدر ظهور هذا الهدى، أو أن مكان تعبدها كانت تطلع إليه لتتعبد ربها في مقابل قبرها الذي صار مكان غروبها وبقائها فيه.

ويكرر كذلك التسبيح، وهي تكثر منه ومستمرة عليه، من ذكر الله وخاصة في الليل، وتكثر من الصلوات خاصة في أكثر الأوقات شغلاً وهو وقت الضحى، أدركها الموت وطول الإقامة في القبر، ويقابل إقامتها في القبر خلو مكان آخر منها وهو مكان جلوسها لقراءة القرآن بأحسن قراءة، ومكان التوجع والتبتل لله تعالى فقد أصبح خالياً قفراً منها. وكانت إذا دخل الليل وهو وقت الراحة والسكون، ووقت الخوف والرهبة فإنها تبيت مطمئنة لأنها في معية الله عز وجل، قلبها متقد خوفاً وخضوعاً لله؛ لعلمها أن مصيرها ومرجعها إليه عز وجل.{الطويل}

بِطاهِرَةِ الأَثْوابِ قانتة الضُحى مُسَبِّحَةِ الآناءِ مِحرابُها الخِدرُ[1]

{الطويل}

وَشَمسُ هُدىً أَمسى لَها التُربُ مَغرِباً وَكانَ لَها المِحرابُ في الخِدرِ مَطلَعا[2]

{الطويل}

مُسَبِّحَةُ الآناءِ قانِتَةُ الضُحى ثَوَت فثوى مَغنى التَأَوُّهِ بَلقَعا

تَبيتُ مَعَ الإِخباتِ مُسعَرَةَ الحَشا تَقِيَّةَ مَن يَخشى إِلى اللَهِ مَرجِعا[3]

---

(١) الديوان، ص٥٤٣ .

(٢) الديوان، ص٥٥١ .

(٣) الديوان، ص٥٥٢ .

إن أم أبي الوليد تتصف بالعفة، والعفة تستوجب تقوى الله عز وجل، وتسعى جاهدة إخفاء تقواها لشدة إخلاصها لله عز وجل، ولكن مهما حرصت على إخفائها (اِستَبَدَّت) فإن ذلك سوف يظهر على سلوكها بأعمالها الصالحات (يستوضح)، فهي تحرص على إخفاء طاعاتها وتخفض لذلك ستراً بينها وبين الناس، ولكن ذلك الستر يُزال ويُكشف بسبب كثرة صلواتها تنفلاً، فلابد أن يدخل عليها أهلها وخاصتها أو من يقوم بخدمتها فيجدها تتعبد.{الطويل}

حَصانٌ إِنِ التَقوى اِستَبَدَّت بِسِرِّها فَمِن صالِحِ الأَعمالِ يُستَوضَحُ الجَهرُ
يُطَأطَأُ سِترُ الصَونِ دونَ حِجابَها فَيُرفَعُ عَن مَثنى نَوافِلِها السِترُ[1]

إن ابن زيدون يوظف صورته بما يتناسب مع من يتحدث عنه، فعندما ذكر النساء تحدث عن العفة وطهارة الأثواب والمحراب في الخدر؛ لأن مقامهن يقتضي التحرز والتحصن، وعندما ذكر الرجال ذكر المنبر والسيف، والمصحف لما فيه من الجهر بالقراءة، فعندما هنأ المعتضد بعيد الأضحى ذكر أن الأشياء التي يستخدمها تتكبر وتتعالى فخراً وسروراً، فسرير الملك ومنبر الخطابة يسعدان باعتلائه عليهما، ويثني على فعله وجميل خصاله السيفُ الذي كان يحارب به، والمصحفُ الذي كان يقرأ منه، فهو حاكم يجيد الحكم وجمع بين أمور الدين والدنيا فهو عابد وقارئ للقرآن، مجاهد مقاتل، خطيب مفوه، سياسي محنك.{الطويل}

يَتيهُ بِمَرقاهُ سَريرٌ وَمِنبَرٌ وَيَحمَدُ مَسعاهُ حُسامٌ وَمُصحَفُ[2]

وكثيراً ما يكرر أفكاره ويرددها ولعله يريد تأكيدها والإقناع بها على طريقة الإيحاء[3]، وهناك فكرة تكررت لدى الشاعر، وهي فكرة (هلاك الأجر) عدم الصبر على المصيبة عند نزولها، فليست المصيبة في وفاة المتوفى وأن يوسد القبر، فهذا مصير جميع البشر، ولكن المصيبة أعظم المصيبة التي تذهب بالأجر وتمحقه،

(١) الديوان، ص٥٤٤ .
(٢) الديوان، ص٤٨٧ .
(٣) الديوان، ص٩٥ .

وجاء بيت الشاعر متكئاً على (الرزء) حيث كرر كلمة (الرزء) ثلاث مرات في بيت واحد. والأيام هذا دأبها حلول المصائب وعلى الإنسان الصبر عليها، وليس كلٌ يستطيع ذلك، بل الصبر من خلق وطبيعة الصادقين المطيعين، ثم يقسم ابن زيدون الصبر إلى قسمين لا ثالث لهما، الأول صبر التجزع والتسخط، والثاني صبر الاكتفاء والاستغناء لا تريد فيه الأجر إلا من الله، فالخيار بيد الإنسان، والعاقل اللبيب لا يختار الذي فيه ذنب أو فقدان الأجر، وكرر الشاعر الصبر في البيت ثلاث مرات حاضاً وحاثاً عليه. ثم يحذر وينبه الذي وقعت عليه المصيبة، فبما أن المصيبة وقعت فلا تجعل الإثم والخسران يتبعها، فيضعف إيمان المصاب لعدم تسليمه لركن من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقضاء والقدر ولا يجد له عذراً على تسخطه أمام خالقه عز وجل.{الطويل}

وَما الرُزءُ في أَن يودَعَ التُربَ هالِكٌ بَلِ الرُزءَ كُلَّ الرِزءِ أَن يَهلِكَ الأَجرُ[1]

{الطويل}

هُوَ الدَهرُ فَاصبِر لِلَّذي أَحدَثَ الدَهرُ فَمِن شِيَمِ الأَبرارِ في مِثلِها الصَبرُ

سَتَصبِرُ صَبرَ اليَأسِ أَو صَبرَ حِسبَةٍ فَلا تُؤثِرِ الوَجهَ الَّذي مَعَهُ الوِزرُ

حِذارَكَ مِن أَن يُعقِبَ الرُزءُ فِتنَةً يَضيقُ لَها عَن مِثلِ إيمانِكَ العُذرُ[2]

والعاقل ذو اللب إذا حزن وتلهف لفقد حبيب فذهب عقله واحترقت كبده، وأراد أن يختار الجزع أم الصبر، رأى بعقله وبصيرته أن أثقل الفقد ليس فقد الحبيب وليس الجزع بل ذهاب وفقدان الأجر هو الأكثر ضرراً عليه.

إن الشر والعذاب الشديد على من تأخذه النكبات هو ذهاب الأجر وعبر عنه الشاعر بالموت؛ لأنه يذهب ولا يعود، وهو مناسب للموقف؛ لأنه موقف موت، وليس

(١) الديوان، ص٥٢٨ .

(٢) الديوان، ص٥٣٩ .

الشر والعذاب في فراق من ضمه القبر، يلاحظ التجسيم الذي انتهجه الشاعر، فالأجر يهلك والثواب يموت.{الطويل}

إِذا آسَفَ الثُكلُ اللَبيبَ فَشَفَّهُ رَأى أَفدَحَ الثَكلَينِ أَن يَهلِكَ الأَجرُ

مُصابُ الَّذي يَأسى بِمَيتِ ثَوابِهِ هُوَ البَرحُ لا المَيتُ الَّذي أَحرَزَ القَبرُ(١)

إن الشاعر يستلهم من اسم ممدوحه ما يقربه منه، فيوظف من اسم المعتمد (محمد) ويناديه بأن اسمه مشابه لاسم من أمرنا الله بالصلاة والسلام عليه، في الصلوات وفي الجمع على المنابر وفي الخطب والمكاتبات.{المجتث}

ويا سمي المصلى على اسمه والمسلم(٢)

يعتقد ابن زيدون طاعة ولي الأمر اعتقاداً دينياً وليس تزلفاً أو رياء، ودليل ذلك تكراره لهذه الفكرة بصور متعددة، "والحقيقة أن تلوين الأفكار –لا جدتها – هو أهم ما برع فيه ابن زيدون"(٣)، ويستخدم هنا صورة من صور العبادة وهما الحج والعمرة، فخاطب المعتمد بأنه ابنٌ كريمٌ من أبٍ كريم، فهو مِن نسل مَن يجب على المسلم أن يخلص له الرأي والمشورة، ولو لم يأخذ بها فإن الاستجابة لأوامره واجبة في المنشط والمكره، ولكي يقنع سامعه بوجوب هذا الأمر، ووجوب طاعة الابن كما يُطاع الأب، ووضح ذلك بالحج والعمرة فكلاهما فرض وإن كانت الناس تعظم شأن الحج وتقلل من شأن العمرة، ولأنه يتحدث عن أب وابنه فجعل العُمَر بارة بالحج واصلة له، والابن بار بأبيه فطاعته ونصحه فرض.{المنسرح}

نَجلُ الَّذي نُصحُهُ وَطاعَتُهُ كَالحَجِّ تَتلوهُ بَرَّةُ العُمَرِ(٤)

ينتهج ابن زيدون الإقناع بأسلوب لطيف محبب لنفس، وليس بأسلوب الحِجاج والمنطق، فهو يخاطب رجلاً كبيراً في السن (جده) متعبداً، فيحاول إقناعه بقبول

---

(١) الديوان، ص٥٤٠ .

(٢) الديوان، ص٦٢٣ .

(٣) الديوان، ص٩٥ .

(٤) الديوان، ص٢٠٨ .

عنب أهداه له، فهذا الطعام مساعد ومقوٍ لمن يتابع صيام أيامه، فهو ليس طعاماً فقط بل إنه مذهب للعطش.{الخيف}

ومُعِينٌ لِوَاصِلِ الصومِ، يَسْرِي بَرْدُهُ في الحَشَا فَيُروِي الظِّمَاءَ[1]

يضفي ابن زيدون انفعالاته ومعتقداته على نصوصه، فيصف الشاعر ابنَ جهور بأنه حريص على جمع شمل المسلمين؛ لأن في جمعهم من التفرق والشتات إصلاح لصدع الدين والأمة، وهو مصلح لما فسد من أمر الحكم والملك كذلك، فهو يهتم بأمور الدين والدنيا معاً، ولكن شغله هذا لا يعنى أنه لا يشغل وقته بما ينفس عن نفسه ويريحها، فغيره يشغل وقته بالحديث مع الندماء والجلساء بأحاديث لا تنفع، أما هو فلا يشغل وقته بتوافه الأمور وإنما متعته وتسليته أن يشغل وقته **بذكر الله** عز وجل، وإذا جالس فإنما يجالس الكتب. ويلاحظ في البيتين الحضور القوي لضمير المخاطب الكاف، فقد كرره ثلاث مرات، دلالة على قربه النفسي من الممدوح وأنه مطلع على تفاصيل تصرفاته، وعندما تحدث عن أهل اللهو والغفلة أقصاهم وأبعدهم وذكرهم بضمير الغيبة.{الطويل}

فَإِنَّكَ لِلدينِ الشَعيبِ لَمِلئمٌ وَإِنَّكَ لِلمُلكِ الثَئِيِّ لَرِئابُ

إذا مَعشَرٌ أَلهاهُمُ جُلَساؤُهُم فَلَهوُكَ ذِكرٌ وَالجَليسُ كِتابُ[2]

"مسؤولية الشاعر الكبيرة تقع في اقتناص خصائص الجمال في العمل الأدبي، فهو يستطيع أن يثير الدهشة، ويلفت النظر بأي شكل من الأشكال إلى عمله"[3]، فعندما يخاطب محبوبته يطلب منها أن تصله ولو بالخيال، فلو لم يتم التواصل الحقيقي فلعل في وصل الخيال ما يسد شيئاً من الحاجة والشوق. لكن أين ما يدل على التراث الديني في البيت، إن ابن زيدون بأسلوبه (لا تقطعي صلة) يذكِّر بصلة

(١) الديوان، ص٢٢١ .

(٢) الديوان، ص٣٧٩ .

(٣) صاحي، كريم عجيل – عذافة، سعد هاشم، أسلوبية تركيب البيت الشعري في حائية ابن زيدون (ت٤٦٣)، واسط: مجلة كلية التربية، العدد: العاشر، ص١٣٢ .

الرحم وعدم قطعها، فكأنه ينزل وجوب صلته وعدم قطعها من محبوبته حتى لو بالخيال منزلة الإلزام، كما أن صلة الرحم تقع بالقليل من الوصل والسؤال.{الطويل}

لا تَقطَعي صِلَةَ الخَيالِ تَجِنُّباً إذ فيهِ مِن عَوَزِ الوِصالِ سِدادُ[١]

يعتبر ابن زيدون ما يُنشد في مدح المعتضد بصوت حسن قرآناً يستحق الاهتمام به وله منزلة ومكانة عالية، ومن يشكك فيما جاء في هذا المدح أو ينتقص منه فيعتبر كافراً عادلاً عن طريق الإسلام، وهذا الاستخدام أضفى على النص كثيراً من الإيحاءات، ووشح البيت بكثير من الدلالات.} الكامل {

قَد قُلتُ لِلتالي ثَناءَكَ سورَةً ما لِلوَرى في نَصِّها إلحادُ[٢]

إن البر أهم ما يَمدح به ابن زيدون حتى لو كان الممدوح حاكماً، فيخاطب أبا الوليد معزياً له في أمه أنه سعى أن يكافئها أفضل المكافأة، فيبادل إحسانها إحساناً، فهي أم حنون، فالأم أساساً واجب الإحسان إليها فكيف لو كانت حنوناً، وقد بالغ في إكرامها غاية الإكرام قولاً وعملاً ودلالة ذلك تشديد الفاء (تَحَفّى)، وليس هذا صنيعه الحسن الوحيد بل جميع أفعاله حسنة.

وكأن هذه الأم عقدت عهداً واتفاقاً مع الموت، وقد وثقته بأشد العهود والمواثيق، وأجلته بأنه متى وصلتْ غايتَها من النصيب والسعادة في ابنها بأن يصل أرفع المكانات أن توفي النذر، ولذلك توفيت في هذا الوقت وفاء بنذرها حيث وصل إلى سدة الملك.{الطويل}

وَجازَيتَها الحُسنى فَأُمٌّ شَفيقَةٌ تَحَفّى بِها اِبنٌ كُلُّ أَفعالِهِ بِرُّ[٣]

{الطويل}

كأَنَّ الرَدى نَذرٌ عَلَيها مُؤَكَّدٌ فَإِن أُسعِفَت بِالحَظِّ فيكَ وَفى النَذرُ[٤]

---

(١) الديوان، ص٤٤٩ .

(٢) الديوان، ص٤٦٤ .

(٣) الديوان، ص٥٤٥ .

(٤) الديوان، ص٥٤٦ .

يكرر ابن زيدون أفكاره بصور متعددة قناعة بها، فمن يرثيه يذكر عنه أنه لا يكتفي بالفرض بل يجعل النفل فرضاً على نفسه، ومن باب أولى فلن يترك الفرض طالما أنه يحافظ على النفل.

وهذه المتوفاة لا تطيب نفسها بأداء الفروض إلا ومعها نفل، بل تعتبر أن الفرض لن يقبل ما لن تقارنه النافلة وتجد في نفسها تأثماً من ذلك، إذن هي من باب أولى لن تفرط في الفرض بما أنها لم تفرط في النفل. ودلالة (تتطوعا) تفيد الاستمرار والتكرار والاختيار وعدم الإكراه.{الطويل}

كَأَنَّ قَضاءَ الواجِباتِ مُحَرَّجٌ تَقَبُّلُهُ إِلّا بِأَن تَتَطَوَّعا[1]

ذكر ابن زيدون الكثير من مظاهر العبادة وربطها بمن تحدث عنهم من حكام ومرثيين ومحبوبين، وما كان من أثر لهذه العبادة عليهم في دنياهم وأخراهم.

(١) الديوان، ص٥٥٢ .

المبحث الثاني: المناسبات والأماكن الدينية:

المناسبة الدينية والمكان الديني فرصة لتزكية النفوس وتوجيهها، واستثمار الشاعر لها وإسقاطها في نصوصه بما يحقق هدفاً للشاعر يدل على إبداعه.

تمر على المسلم مناسبات وأوقات دينية، منها ما هو أسبوعي كالجمعة، ومنها ما هو سنوي كشهر رمضان والعيدين، وذكر ابن زيدون أشهر المناسبات الدينية الأعياد وشهر رمضان، كما ذكر العيد الأسبوعي وهو الجمعة، ومن الأماكن ذكر الكعبة.

في القصيدة التي اتُهم فيها ابن زيدون أنه ممن ثار على أبي الوليد ابن جهور ذكر الشاعر أنه ليس بمستغرب تميز بني جهور على غيرهم، ليس من عامة الناس بل تميزهم على الملوك، فهم أعظم مكانة وأرفع، فهم مثل أيام الجمع بين أيام الشهر متميزة بما فيها من فضائل الأعمال، وقليلة في أيام الشهر.{البسيط}

مِنَ الوَرى إن يَفوقوهُم فَلا عَجَبٌ كَذَلِكَ الشَهرُ مِن أَيّامِهِ الجُمَعُ[1]

والقصيدة التي يهنئ فيها أبا الوليد بعيد الفطر، توجه بالعزاء له على ذهاب شهر الصيام وأن رحيله رزية موجعة مفجعة، ومصيبة نازلة به، فجعل ابن زيدون رمضان والداً أو مولوداً أو عزيزاً يُعزى الخليفة على رحيله، وهذا دلالة على عظم مكانة هذا الشهر في نفس الخليفة التقي العابد.

رمضان زائر كريم، والزائر لا يطيل المكث والإقامة، لكن على فرض إعطائك تحقيق الأمنيات لاخترت أن يقيم ولا يرحل، وقد اختار الشاعر لذلك صورة (وضع العصا) التي أفادت أمرين معاً: أن رمضان زائر قليل المكث لذلك هو يحمل عصاه لكثرة ترحاله، فهو مستعد دوماً للرحيل، وأفادت بقاءه واستقراره حيث إنه ألقى عصاه وثبت زمانه، والهدف من بقائه كي ينمو أجر من يريد زيادة الأجر. إن انتقاء الشاعر

(١) الديوان، ص٢٩٨ .

للفظة (الزور) يكسو النص السرعة، فهذا الشهر سريع المرور قليل المكث، وفيه الأجور الكثيرة، فقد جانس الشاعر بين (الثَوابِ مُثابُ).

وابن زيدون يتكلم عن حضور ومعاينة، فأبو الوليد يقوم بحق فرض الصوم خير قيام، فهو فقيه عالم بأمور دينه، بل إنه يتعمق ويتبحر في علوم الدين ولا يكتفي بظواهرها، ويحتمل (نقاب) أنه يخفي علمه بهذه الأمور إخلاصاً لله عز وجل. ومعلوم أنه كان "حافظا للقرآن العظيم مجوداً لحروفه كثير التلاوة له، وكان معتنياً بسماع العلم من الشيوخ وروايته عنهم"(١).

لقد انقطع أبو الوليد للعبادة معتكفاً في بيت الله، ليس كرهاً وإنما فرحٌ مسرورٌ بهذا الجوار وهذا الانقطاع، ولم يكن منفرداً بل اختار لمخالطته رهطاً يتصفون بصفات تعينه على هذه المجاورة، فهم أتقياء يخضعون لله عز وجل يشغلون أوقاتهم بالعبادات الظاهرة والعبادات الخفية.{الطويل}

نُعَزّيكَ عَن شَهرِ الصِيامِ الَّذي انقَضى فَإِنَّكَ مَفجوعٌ بِهِ فَمُصابُ
هُوَ الزَورُ لَو تُعطى المُنى وَضَعَ العصا لِيَزدادَ مِن حُسنِ الثَوابِ مُثابُ
شَهِدتُ لَأَدّى مِنكَ واجِبَ فَرضِهِ عَليمٌ بِما يُرضي الإِلَهَ نِقابُ
وَجاوَرتَ بَيتَ اللَهِ أُنساً بِمَعشَرٍ خَشوهُ فَخَرّوا رُكَّعاً وَأَنابوا(٢)

ويخاطب أحد الحكام مهنئاً له بالعيد يدعوه إلى الفرح والسرور وألا يحزن على انقطاع شهر العبادة، ويستخدم لذلك الفعل (ينصرم) والذي وإن أفاد الانقطاع البائن فهو لرمضان الذي رحل، لكن بإذن الله يتجدد لقاؤك برمضانات أخرى، ولئن انقضى رمضان بالأعمال الصالحة فهناك جولة أخرى وسباق آخر للمبادرة إلى الأعمال الصالحة، وهو بقية أيام السنة، ويستحثه بأسلوب الاستفهام (ما أَنتَ عامِلُ)، الذي يشي بالهمة والعمل.

---

(١) ابن بشكوال، الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١، القاهرة– بيروت: دار الكتاب المصري– دار الكتاب اللبناني، ١٤١٠هـ– ١٩٨٩م، ٨٠١/٣ .

(٢) الديوان، ص٣٨٠ .

ولأنه بدأ يخاطب هذا الحاكم فيكمل حديثه إليه بأنه يعتقد ويؤمن بوجوب أداء فرائض الله عز وجل، وأنه أمر محتم لا مرية فيه، وعلى الرغم من أدائه للفرض على أكمل وجه إلا أنه لا يقبل أداء الفرض وحده بل يتبعه بالتطوع لأنه يرغب بزيادة الغنيمة والأجر. والتعبير بالفعل المعتل الآخر وحذف حرف العلة منه (تَرضَ) إشارة أن هذا الحاكم يستشعر النقص والتقصير في أداء الفرض وحده بل لابد من اقتران النفل به.

ويذكر الشاعر لزوم الحاكم لبيت الله، ويستعمل لذلك كلمة غريبة (سَدِك) والتي لا تدل على اللزوم فحسب بل اللزوم بولع ومحبة، والالتصاق دليل المحبة الشديدة لذلك عبر بحرف الجر الباء (بِبَيتِ)، وملاصقة بيت الله ملاصقة للأجر فكرر الباء (بِالأَجرِ)، ثم أكد ذلك كله صراحة بلفظة (حُبَّ)، ومن يقبل على طاعة الله بحب ليس كمن يقبل عليها مكرهاً لذلك فالله عز وجل ضامن لك الثواب والجزاء، وليس أي ثواب بل الجزاء المضاعف منه عز وجل، وجاء تقديم الجار والمجرور (لك) إشارة إلى اعتناء الله به واختصاصه بالأجر العظيم، فالتقديم جاء "من أجل تحقيق أبعاد نفسية معينة قد تكون نابعة من طبيعة تجربته الشعورية، وقد تكون نابعة من المعنى الذي يرغب بنقله للمتلقي"[1]. {الطويل}

لَئِن يَنصَرِم شَهرُ الصِيامِ لَبَعدَهُ شأى صالِحِ الأَعمالِ ما أَنتَ عامِلُ
رَأَيتَ أَداءَ الفَرضِ ضَربَةَ لازِمٍ فَلَم تَرضَ حَتّى شَيَّعَتهُ النَوافِلُ
سَدِكتِ بِبَيتِ اللَهِ حُبَّ جِوارِهِ لَكَ اللَهُ بِالأَجرِ المُضاعَفِ كافِلُ[2]

وعلى طريقة الجاهليين بمخاطبة الصاحبين يفتتح ابن زيدون إحدى قصائده متشوقاً لقرطبة بعد أن خرج منها، فهو لا يسعد بأي عيد؛ لأن نفسه تنازعه العودة إلى قرطبة التي يهوى.

(١) صاحي، كريم، أسلوبية تركيب البيت الشعري في حائية ابن زيدون، ص١٣٢ .
(٢) الديوان، ص٣٩٦ .

والشاعر يوجد حواراً داخلياً في هذا البيت، فقال: خَليلَيَّ.

– فأجاباه: ما تريد؟

– لا فِطرٌ يَسُرُّ وَلا أَضحى.

– ولماذا لا يسرك العيد وهو وقت الفرح والسعادة؟!

– ما حالُ مَن أَمسى مَشوقاً كَما أَضحى.

ولأن ابن زيدون يريد مشاركة الصاحبين لم يقدم لهما سبب حزنه جملة خبرية مباشرة وإنما استخدم أسلوب الاستفهام ليشاركاه الحديث والحوار. إن الاستفهام "عملية مشتركة بين المبدع والمتلقي، عبر إشراكه في إثارة قواه الذهنية وتحفيزها، كما يعد باباً من أبواب التواصل المتداولة"(١).

واستعمال الشاعر لكلمة السرور دون غيرها من الكلمات مثل الفرح أو السعادة؛ لأن السرور تذكر بالسر وهو الأمر الخفي فالسرور لا يشترط أن يكون أمراً ظاهراً محسوساً بل يكون في داخل النفس وقناعتها ورضاها، وقد قرن الشاعر العيدين معاً إشارة إلى طول حزنه حيث استغرق مدة العيدين معاً. يلاحظ "الحزن العميق والعبرات المنكسرة التي تكاد تضيق بها النفس المغتربة، التي تعاني القلق والحنين وفقدان الأهل والأحباب نتيجة الاستبداد والقهر تصاحبهما معاناة حادة وألم نفسي"(٢). وفي تنكير (فِطرٌ) إشارة إلى غربة هذا العيد عليه، فهو نكرة غير معروف، فالعيد المعروف فرح وسعادة، وهذا العيد حزن وبعد.{الطويل}

خَليلَيَّ لا فِطرٌ يَسُرُّ وَلا أَضحى فَما حالُ مَن أَمسى مَشوقاً كَما أَضحى(٣)

ثم بعد هذا البيت بعدة أبيات يذكر لحظات السعادة والوصال مع الأحباب في قرطبة، في مكان يقال له العقيق في قرطبة تشبيهاً ومماثلة للعقيق الموجود في

---

(١) أحمد، فالح – سلمان، رضا، الاستفهام وأغراضه المجازية في شعر ابن زيدون، ص٣٨ .

(٢) عبد الحسين، صادق جعفر، جماليات النسق الضدي – شعر ابن زيدون أنموذجاً، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد: السادس عشر، العدد: ٣، ٢٠١٣م، ص١٩٤ .

(٣) الديوان، ص١٥٨ .

الجزيرة العربية، ومعلوم أنهم كانوا يسمون الأماكن الأندلسية بأسماء الأماكن المشرقية حباً لها واستشعاراً لوجودهم فيها، ولكن هذه اللحظات الجميلة ذهبت وفنيت، ولذلك عبر بالحروف صعبة النطق (اِقتَضَيتُهُ) لصعوبة ذهابها على نفسه، ويظهر أن البعد والفراق ذهب بعقل الشاعر ولبه فتساوى عنده عيد المسلمين وعيد النصارى، فالمهم لديه أن يلقى محبوبه مهما كان الظرف.{الطويل}

وَأَيّامُ وَصلٍ بِالعَقيقِ اِقتَضَيتُهُ فَإِلّا يَكُن ميعادُهُ العيدَ فَالفِصحا[1]

يخاطب ابن زيدون المعتضد أن الفرح والطلاقة ملازمة له بحلول العيد، والسعادة والفرح تحيط به من كل مكان وتمنع عنه الهموم والأكدار، ويرافق ذلك الفضل والخير بأن يدرك ما يرجوه ويكون في جهته وناحيته.

في عيد الأضحى بعد أن أدى المعتضد ومن معه ما يتعلق بهذه الشعيرة من صلاة وذبح رجعوا مع الحاكم إلى قصره الذي هو مقصد ومؤول الناس، فكما أن الناس في أرجاء الدنيا في ذلك اليوم وفي مكة بالتحديد يقصدون الكعبة لأداء وإكمال مناسك الحج، كذلك الرعية هنا في الأندلس يقصدون قصر الحاكم من الصباح الباكر إما للنظر إليه أو الدوران حوله لعلهم يُكرمون بعطاء أو نظرة من الحاكم.

والأماكن الدينية التي ذكرها ابن زيدون قليلة، لا تعدو القبلة الكعبة، والمسجد المعتكف.{الطويل}

وَبُشراكَ عيدٌ بِالسُرورِ مُظَلَّلٌ وَبِالحَظِّ في نَيلِ المُنى مُتَكَنَّفُ[2]

{الطويل}

وَعُدنا إِلى القَصرِ الَّذي هُوَ كَعبَةٌ يُغاديهِ مِنّا ناظِرٌ أَو مُطَوِّفُ[3]

وعند مدحه لبني عباد يستخدم الشاعر الاستفهام المنفي تأكيداً لفكرته، حيث جعلهم الجهة المقصودة التي يتوجه لها الناس عند حاجتهم معلقين عليها آمالهم

(١) الديوان، ص١٥٩ .

(٢) الديوان، ص٤٩٣ .

(٣) الديوان، ص٤٩٦ .

ورغباتهم لقضائها، بل يقصدونهم ليس مرة بل يقبلون عليهم مواظبين مستمرين في ذلك لا ينقطعون. وهنا استخدم الشاعر مظهرين من مظاهر العبادة وهما: القبلة والاعتكاف. حتى إن محقق الديوان عنون القصيدة بهذا البيت فعنونها (كعبة الآمال).

إن المكان الديني ليس مادة النص الأساس ولكنه يستحيل إلى عالم داخل فضاء النص الكلي يشف عن تجربة المكان الذي ينفتح على الفكرة الأساس للنص ويستوعبها[١].{الطويل}

أَلَيسَ بَنو عَبّادٍ القِبلَةَ الَّتي عَلَيها لِآمالِ البَرِيَّةِ مَعكَفُ[٢]

يخاطب ابن زيدون أحبابه الذين هجروه، ومن كان سبباً في بعده عن أحبابه وخروجه عن قرطبة، وبأسلوب الشرط يعبر الشاعر عما يقاسيه من اليأس والخيبة، فإن رجع عليكم العيد فهناك شاب قوي عندما سمع الحديث عنكم ومر طيفكم بخياله لم يدرك السعادة والسرور في العيد بل أصابه شعور مخالف لهذا وهو الحزن، وما سبب ذلك إلا البعد والفراق.{البسيط}

إِنْ كَانَ عَادَكَمْ عِيدٌ فَرُبَّ فَتَى بِالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ مِنْ ذِكْرِكُمْ حَزَن[٣]

يختم ابن زيدون قصيدته التي عنون لها المحقق ب (العيش المونق) بهذا البيت الذي يذكر فيه الزمان والمكان، وكأنه يشير إلى أن العيش المعجب للإنسان المدخل عليه السرور والبهجة، فمتى يكون ذلك؟ في رمضان، وأين المكان؟ المسجد وقت الاعتكاف.{الكامل}

خَيرُ الشُهورِ اِختَرتَ عِندَ طُلوعِهِ خَيرَ البِقاعِ لَهُ بِأَسعَدِ طالِعِ[٤]

إن براعة الشاعر ليست في التعبير المباشر وإنما في أيصال الفكرة بأسلوب أدبي جذاب، فعندما خاطب الشاعر أبا الوليد بن جهور ودعا له بطول العمر لم

---

(١) عبد المجيد، مريم، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، ص١٣٥.

(٢) الديوان، ص٤٩٠ .

(٣) الديوان، ص١٦٣ .

(٤) الديوان، ص٤٠٥ .

يذكر ذلك مباشرة وإنما سأل الله أن يُبشر بأعياد كثيرة متتابعة، مثلما تتابع العقد المتساوية في الرماح.{الطويل}

وَبُشراكَ أَعيادٌ سَيَنمي اِطِّرادُها كَما اِطَّرَدَت في السَمهَرِيِّ كِعابُ[1]

وجد ابن زيدون المناسبات الدينية المتنوعة فرص لبث مشاعره وأفكاره والتعبير عما يختلج في نفسه، فجاءت صادقة مؤثرة أبانت عما يعتريه من أحاسيس.

المطلب الثالث: التناص مع القرآن والحديث النبوي:

إن الاقتباس من القرآن والحديث يكسب البيت قوة وجلالاً، ويجعل السامع يقتنع بما يذكر الشاعر لارتباطه وجدانياً بالقرآن والسنة، فلا مجال للرفض والرد، وهو يأتي لتقوية المعنى وتوكيد الكلام. والاقتباس "يزين الكلام لدى المتلقي بما يضفي عليه من التأثير والقوة عن طريق تداعيات المعاني، وإيحاءات الألفاظ، فتعظم بع الفائدة فيه"[2].

وبما أن المذهب المالكي هو الذي كان سائدا في الأندلس فكان من الطبيعي أن يؤثر في شعرائهم وجعلهم يتجهون في الأعم الأغلب إلى الاقتباس بالمعنى لا بالنص[3].

أكثر ابن زيدون من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وربما ساوى هذا الموضوع موضوع العبادة، وهذا يدل على شدة تأثر ابن زيدون بالدين الإسلامي ويعود ذلك إلى نشأته الدينية القوية.

---

(١) الديوان، ص٣٨١ .

(٢) اللهيبي، حسين عبد العال، ظاهرة الاقتباس في شعر صفي الدين الحلي– دراسة بلاغية، مجلة القادية للعلوم الإنسانية، المجلد: السابع عشر، العدد: ٣، ٢٠١٤م، ص١٨٥.

(٣) الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي، ص٤٤. نقلاً عن: بهجت، منجد مصطفى، البحر في شعر الأندلس والمغرب في عصر الطوائف والمرابطين، حوليات كلية الآداب، الحولية السابعة، الرسالة الأربعون، ١٩٨٦م، ص٥٤.

وقد وظف الآيات والأحاديث في الحديث عن الحب والحاكم والأعادي والمتوفين وغيرها.

فعندما تشوق ابن زيدون إلى قرطبة تذكر أنه كان يجلس جوار بركة مياهها ثابتة غير متحركة مما يشعر بالهدوء والسكون، وهذه البركة تستثيره إلى اللهو والمتعة، ولشدة ركود الماء وشدة الهدوء فإن ظاهر هذا الماء كأنه زجاج أخضر تظنها مُلّست وسُويت مثل بلاط القصر الفخم، وهنا يقتبس الشاعر من قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ ﴾[1] ويذكِّر بقصة سليمان # مع بلقيس، فحضارة الأندلس وقرطبة بالذات تشاكل ما وصل له ملك سليمان # آية تدل على عظمة ملكه #.{الطويل}

لَدى راكِدٍ تُصبيكَ مِن صَفَحاتِهِ قَواريرُ خُضرٍ خِلتَها مُرِّدَت صَرحا[2]

يتذكر ابن زيدون أيام سعده ولهوه في قرطبة، ويتذكر ذلك الساقي الذي يطوف عليهم بالخمر، وهو ممتلئ حباً وعشقاً لمن يسقيهم رغم ما يحيط الشاعر من منافسين لكسب ود هذا الساقي، وما سبب هذه المنافسة؟ هي الرغبة في الحصول على هذا الخمر الجيد المحكم الإغلاق الذي آخره رائحة المسك فيريد الحصول عليها قبل الآخرين.{الطويل}

يُديرُ عَلى رَغمِ العِدا مِن وِدادِهِ سُلافاً كَأَنَّ المِسكَ مِنهُ خِتامُ[3]

يخاطب الشاعر محبوبه متعجباً كيف أنه صادق في محبته ويقدمها له خالصة، بينما المحبوب على النقيض، يضع عليه علامات وسم تنكيلاً به وتعذيباً، والعذاب في القرآن جاء لمن يتصفون بالصفات السيئة القبيحة والشاعر لم يبلغ هذا المبلغ حتى يكون هذا جزاؤه بل على العكس هو صادق الحب، وجزاء المحبين

(١) سورة النمل، آية ٤٤ .

(٢) الديوان، ص١٥٩ .

(٣) الديوان، ص١٥٣ .

الإحسان والإكرام. وقد سمى المحقق القصيدة بالآية (سوء العذاب). واستعمال الشاعر للاستفهام الإنكاري يدل على دهشته من هذه المعاملة من قبل المحبوب. {الوافر}

أَيَجمُلُ أَن أُبيحَكَ مَحضَ وُدّي وَأَنتَ تَسومُني سوءَ العَذابِ[1]

يصل الغضب بالشاعر إلى أن يختم إحدى مقطوعاته مخاطباً المحبوبة التي لا تقدس الحب ولا تهتم به، فيذكر لها أنه عشق غيرها وصرف نفسه عنها، ثم الشاعر يجعلها من اليهود الذين لا يقدرون النعم التي يكرمهم الله بها بل على العكس يختارون الأقل ويتركون الأفضل. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾[2]، وجعله آخر أبياته الثلاثة دلالة على قطع العلاقة نهائياً. وفي نسبة المحبوبة إلى قوم موسى # وعدم نسبتها صراحة إلى اليهود ما يُشعر بقاء شيء من الحب لها، فعلى الرغم أنه نفى عنها العشق إلا أنه غارق في حبها.{الخفيف}

لَيسَ مِنكِ الهَوى وَلا أَنتِ مِنهُ اِهبِطي مِصرَ أَنتِ مِن قَومِ موسى[3]

ويصف ابن زيدون قلة زيارة أحد الأصدقاء وأنه تغير عن حاله السابقة فصار كمن يخاف أن تلقى عليه الشهب من السماء لاستراقه السمع، وهم الشياطين ساخراً منه بفعله ذلك.{السريع}

وَلَم يَعُد إِلّا كَما يَتَّقي مُستَرِقُ السَمعِ مِنَ الكَوكَبِ[4]

(١) الديوان، ص١٨٠ .
(٢) سورة البقرة، آية ٦١ .
(٣) الديوان، ص١٩٥ .
(٤) الديوان، ص١٩٨ .

وعندما خاطب ابن جهور بعد أن سجنه، ذكر له أنه سجن ظلماً، فحياته في ظل ابن جهور كانت كأنه يعيش في روضة، لكن نار الظلم والعدوان أحرقت هذه الروضة فصارت خربة كالزرع المحصود، أو مثل الليل المظلم.{الخفيف}

نارُ بَغيٍ سَرى إلى جَنَّةِ الأَمنِ لَظاها فَأَصبَحَت كَالصَريمِ[١]

يضفي ابن زيدون انفعالاته تجاه الأشخاص، فيصف المظفرَ بعدة صفات منها حسن كلامه وقراراته الصائبة، كما أنه يمتلك العقل والحكمة، كما كان يملكها داود #، وإضافة الضمير إلى المتكلمين إشارة إلى أن هذا ليس رأي ابن زيدون وحده بل هو حكم مجموعة من الناس، ليس سماعاً وإنما معاينة ومشاهدة.{المتقارب}

شَهِدنا لَأوتِيَ فَصلَ الخِطابِ وَخُصَّ بِفَضلِ النُهى وَالحِكَم[٢]

يوظف ابن زيدون حديث النبي ﷺ: إن من البيان سحرا[٣]، فيذكر صفات المظفر بن الأفطس، ومنها بلاغته وأنه يُظهر مقصوده بأبلغ لفظ بذكاء منه وفطنة، وهذا الكلام فصيح صحيح واضح لكل من يسمعه، وهذا يؤكد أن بعض السحر حلال وهو سحر الكلام. إن انتقاء أسلوب الجناس (بَيانٌ يُبَيِّنُ) للدلالة على شدة الإبانة والوضوح عند الممدوح.{المتقارب}

بَيانٌ يُبَيِّنُ لِلسامِعيـ ـنَ أَنَّ مِنَ السِحرِ ما يُستَحَلّ[٤]

يكرر ابن زيدون فكرة (إن من البيان لسحرا)، فالمعتمد يحسن سبك الكتابة وصناعتها، ولكنه لا يكتبه على الورق وإنما يكتبه في النفوس، والتعبير بحرف الجر (في) دلالة على الظرفية والاشتمال، فهذه الكتابة مختلطة مع النفس غير منفصلة عنها فهي متأثرة به، وهي كتابة ليست فجة غليظة وإنما مكتوبة ومخطوطة بشكل

---

(١) الديوان، ص٢٨٣ .

(٢) الديوان، ص٤١٢ .

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، تحقيق: علي عبد الباسط مزيد – علي عبد المقصود رضوان، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص٣٩٧ .

(٤) الديوان، ص٤٢٤ .

جميل. واستعمال الشاعر (مَسْطُورِ) اسماً على وزن مفعول دلالة أن كلام المعتمد يستقر في النفوس دون اختيار منها لبراعته وإبداعه.{السريع}

إِنَّ حَلَالَ السِحْرِ إِنْ صُغْتَهُ فِي صُحُفِ الأَنْفُسِ مَسْطُورِ[1]

ويخاطب المعتمدَ وكيف أنه تعامل مع جاحدي فضله وإحسانه، بأنه ترك بيوتهم خالية مستوية بالأرض مختفية المعالم مستأصلة من جذورها. لقد استخدم الشاعر عدداً من المفردات التي تؤكد الدمار والهلاك الذي حل عليهم، وكأن هذا الحاكم هو يوم القيامة الذي يدمر كل شيء، حيث استدعى الشاعر مشهد يوم القيامة ودمار أعتى ما على الأرض وهي الجبال. ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾[2].{الطويل}

فَإِن يَكفُروا النُعمى فَتِلكَ دِيارُهُم بِسَيفِكَ قاعٌ صَفصَفُ الرَسمِ تُنسَفُ[3]

لا يقبل أي حاكم أن يوصف بالذل، ولا يليق بشاعر أن يصفه بذلك، لكن ابن زيدون يصف المعتضد بذلك، فعندما رثى أم المعتضد ذكر أنه يهين نفسه ليناً وذلاً لأمه، لكن هذا الذل حقيقة هو عزة له عند الله وعند الناس، وهو لا يذل لها خوفاً واضطراراً وإنما رحمة وشفقة بأمه، والجار والمجرور (لها) أفاد أن هذا الخفض والذل والرحمة مقصور على هذه الأم لا سواها، ولذلك وضح في الشطر الثاني أنه يمتنع عليه أن يهان ويلين أمام أحد غير أمه، وقد يراد بما أنه بر أمه وذل لها فإن جزاءه من الله أن لا يهينه ويذله لأحد بل جعله الله عزيزاً، فالذل يقابله الرفعة.{الطويل}

خَفَضتَ جَناحَ الذُلِّ في العِزِّ رَحمَةً لَها وَعَزيزٌ أَن تَذِلَّ وَتَخضَعا[4]

(١) الديوان، ص٦٢١ .
(٢) سورة طه، آية ١٠٥- ١٠٦ .
(٣) الديوان، ص٤٩٣ .
(٤) الديوان، ص٥٥٥ .

عانى ابن زيدون من الواشين في كل مكان حل به، حتى في بلاط المعتضد والمعتمد، ولذلك في القصيدة التي رثا فيها المعتضد وهنأ المعتمد، أراد ابن زيدون أن يؤكد على مكانته العالية السابقة التي كانت في زمن الأب أنها ستستمر كذلك في زمن الابن، فأعداؤه يُكثرون ذكره بالسوء خفية ولا يجهرون بذلك، بل يؤكدون للحاكم الأمر أن ما ذكروه عنه صحيح ومفروغ منه ولا يحتاج إلى سؤال أحد. ثم يكمل في البيت بعده أن المعتمد خيب ظنونهم وأعادهم خائبين ورد كيدهم في نحورهم. وهذه عادة الجهلة الكذبة لا يرون إلا رأيهم ولا يحثون غيرهم على الشورى وإنما الرأي ما رأوا.{الطويل}

يُطيلُ العِدا فِيَّ التَناجِيَ خُفيَةً يَقولونَ لا تَستَفتِ قَد قُضِيَ الأَمرُ[1]

يكرر ابن زيدون هذا الأسلوب (قضي الأمر) ولكنه هنا يؤكد على أحقية أبي الوليد للحكم بعد وفاة أبيه، فيخاطب صنفين من الناس، أولاً هؤلاء الذين لا يدرون كيف يهتدون، مطمئناً أنه قد ظهر المنار الذي يرشدهم ويدلهم إلى طريق الصواب. ثانياً: الحريصين الراغبين خداعاً وباطلاً الحصول على الملك، يخبرهم أنه انتهى وحسم موضوع الخلافة بتولي أبي الوليد الحكم فلا يحق لأحد منازعته فيه.{الطويل}

فَقُل لِلحَيارى قَد بَدا عَلَمُ الهُدى وَلِلطامِعِ المَغرورِ قَد قُضِيَ الأَمرُ[2]

يعبر الشاعر عن روحه الممزقة بفقده معارفه الموتى، فقد توفي بالأمس القريب ابن جهور النجم المضيء، فاختفى نوره وتناثر جرمه، وهذا اليوم أدرك الموت صديقه القاضي ابن ذكوان الذي كان كالسحاب المعترض في الأفق ومتوالي المطر ولكنه استُلب وانتزع. ويستلهم لذلك آيات كونية عظمى (النجم والسحاب)، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. واستعمال الشاعر ل (هَطّالُ) دلالة على ديمومة المطر وكثرته. {الكامل}

---

(١) الديوان، ص٥٧٠ .

(٢) الديوان، ص٥٢٦ .

إِن يَنكَدِر بِالأَمسِ نَجمٌ ثاقِبٌ فَاليَومَ أَقلَعَ عارِضٌ هَطّالُ[1]

يستعطف ابن زيدون ابن جهور، فيقول في قصيدته التي أرسلها له من السجن، ويصفه بصفة من أعظم صفات المؤمنين وهي كظم الغيظ، فهو يرد ويحبس أشد الغضب، يجري ما في خاطره لكظم الغيظ وعدم إنزال العقوبة، ولو لم يكن صاحب ترفق وتمهل في أفعاله، لقتل كثيراً من مخالفيه، وأباح دماءهم وروى غيظه بقتلهم. {البسيط}

الكَاظِمُ الغَيْظِ يَنْسَابُ الضَمِيرُ لَهُ لَوْلَا الأَنَاةُ سَقَاهُ مِنْ دَمٍ هَدَرِ[2]

يختم الشاعر قصيدته التي يخاطب فيها محبوبته التي تمارس وتجدد منع وصلها له، ويذكرها الشاعر أنها كثيراً في أوقات مضت كانت تعطيه عطاء لا ترجو له مقابلاً، كانت تعطيه المحبة والسعادة دون عد ولا إحصاء لا انتهاء له. ووهب تفيد العطاء دون انتظار مقابل.{الوافر}

وَإِن تَبخَل عَلَيهِ فَرُبَّ دَهرٍ وَهَبتَ لَهُ رِضاكَ بِلا حِسابِ[3]

وعندما تذكر الشاعر بلنسية والأيام التي قضاها فيها، وليس المكان فقط هو الذي أثر فيه بل الرفقة الطيبة، إنه صديقه أبو عبد الله بن عبد العزيز، الذي يتصف بالشباب النضر الطري، ويتصف تجاه الخالق عز وجل بالحزن والتضرع والرقة، وتجاه المخلوقين بالتعقل والصبر وعدم التسفه عليهم. فهو يجمع إلى جمال الظاهر نقاء الباطن، هو على الرغم من جماله الظاهري عابد تقي يتصف بمحاسن الأخلاق القلبية.{مجزوء الكامل}

فَأَرى الفُتُوَّةَ غَضَّةً في ثَوبِ أَوّاهٍ حَليم[4]

---

(١) الديوان، ص٥٣١ .

(٢) الديوان، ص٢٥٥ .

(٣) الديوان، ص١٨٠ .

(٤) الديوان، ص٢٠٢ .

يوظف الشاعر صورة امتلاء الكأس حتى آخرها، ويخاطب المعتمد أن فعله الحسن مع الشاعر ومع غيره يجعل نفوسهم تمتلئ حباً وإكراماً له فتفيض محبته على من سواه، وذلك أنه يسعى إلى تحقيق آماله والوصول إلى المكانة العظمى بالرفق. وأفادت (إرتَفِق) المبالغة في الرفق مع الناس، فالتعامل معهم صعب المراس يحتاج إلى تكلف في اللين لهم، فقد يمتلئ القلب حنقاً وغضباً عليهم، فيكظمه الحاكم ويقابل هذا امتلاء قلوبهم حباً وإجلالاً له.{الرمل}

وَارتَفِق بِالسَعدِ في دَستِ المُنى يُصبِحِ الصُنعُ دِهاقَ الأَكؤُسِ[1]

يستلهم ابن زيدون الصورة القرآنية التي تقبح من الذي يعمل عملاً متقناً ثم يفسده، ويستعمل الاستفهام مستبشعاً مستنكراً هذا الفعل، وهو أن ينقض المدح الذي صاغه وأتقنه في ابن جهور، وفي تقديم (فيك) دلالة على تخصيص الشاعر المدح لهذا الحاكم دون سواه، ولم يكن أي مدح بل مدح متقن الصور والأخيلة صادق العاطفة، فهو لا يصنع صنيع تلك المرأة الخرقاء.{الطويل}

أَأَنكُثُ فيكَ المَدحَ مِن بَعدِ قُوَّةٍ وَلا أَقتَدي إِلّا بِناقِضَةِ الغَزلِ[2]

ورد العذاب في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً، ويعبر بها ابن زيدون عن الألم الذي لحقه، فليس الحبس فقط وطول المدة بل نكال وعقوبة موجعة. ويتمازج الانفعال مع العاطفة تمازجاً فنياً راقياً.

ثم بعد ذلك يُفدِّي ابن جهور ويعتبره جنته وناره، فرضا ولي الأمر سعادة للإنسان في دنياه وأخراه، وسخطه عذاب له في الدنيا والآخرة، بل حتى لو كان يجد ألماً وتعباً ظاهرياً إلا أنه برضا الحاكم عنه يصبح فرحاً وسعادة، كما كانت النار التي ألقي فيها إبراهيم #، فظاهرها للناس نار محرقة ولكنه كان داخلها في أمن وسلام.{الخفيف}

---

(١) الديوان، ص٢١٣ .

(٢) الديوان، ص٢٧٠ .

أَفَصَبرٌ مِئينَ خَمساً مِنَ الأَيّامِ ناهيكَ مِن عَذابٍ أَليمِ[١]

{الخفيف}

بِأَبي أَنتَ إِن تَشَأ تَكُ بَرداً وَسَلاماً كَنارِ إِبراهيمِ[٢]

يختم الشاعر قصيدته بنبرة يائسة غاضبة، إذا كان ابن جهور لا يريد إلا أن يمسك معروفه وإحسانه الذي كان يتكرم به على الشاعر، فهناك بديل عنه فضله وعطاؤه لا يتبدل ولا ينقطع، ومكانته وقدرته فوق هذا الحاكم، وهو الله عز وجل، وفي إضافة كلمتي (قبض مبسوط) دلالة على نقص ومحدودية قدرة الحاكم بينما (القبض والبسط) الكامل المطلق بيد الله عز وجل.{الطويل}

وَإِن يَأبَ إِلّا قَبضَ مَبسوطِ فَضلِهِ فَفي يَدِ مَولىً فَوقَهُ القَبضُ وَالبَسطُ[٣]

أتعب الوشاة ابن زيدون، لكن في ظل أبي الحزم لو تمنى الشاعر أي أمنية ونالت رضا أبي الحزم بقبول وانشراح صدر كأنها النبات المثمر وحركت أطرافه فلن يقع عليه أي لوم أو عتب، والشاعر يستلهم مقولة يعقوب # لبنيه بعد أن وجد يوسف #، فكأن الشاعر في ظل أبي الحزم وجد الراحة والأمان، وألقى الهموم والمتاعب خلف ظهره.{الكامل}

وَإِذا المُنى بِقَبولِكَ الغَضَّ الجَنى هُزَّت ذَوائِبُها فَلا تَثريبا[٤]

يثني ابن زيدون على صديقه أبي الحزم بأنه حاكم اتصف بانقياده لله، ولذلك هو ملهم من الله لفعل الخير والصواب، وهو قبل الملك وبعده متصف بأنه رجّاع إلى الله مقبل عليه تائب إليه. ينتزع الشاعر صورته هنا مما اتصف به إبراهيم الخليل #.{الكامل}

---

(١) الديوان، ص٢٨٢ .

(٢) الديوان، ص٢٨٣ .

(٣) الديوان، ص٢٩٣ .

(٤) الديوان، ص٣٣٠ .

مَلِكٌ أَطاعَ اللَهَ مِنهُ مُوَفَّقٌ ما زالَ أَوّاباً إِلَيهِ مُنيبا[1]

في القصيدة التي يمدح فيها ابن زيدون أبا الوليد بن جهور لأمره كسر دنان الخمر، يصفه بعدة صفات دينية وأنه حاكم حازم أضاف إلى الملك التقوى والديانة، والأمور التي يخفيها لها المنزلة الرفيعة، والأمور التي يظهرها من باب المروءة والسخاء حتى يقتدي به غيره. ولا أتفق مع من قال أن "إشادته بابن جهور حين كسر دنان الخمر فإنه لا يعبر بهذا عن رأيه الخاص وإنما يؤدي واجباً يقتضيه منصبه الرسمي ويحتمه المقام"[2]، فالخمرة محرمة معلوم تحريمها، والمجتمع مجتمع إسلامي ولو كان فيه شيء من الفسق والفجور، فالشاعر يعبر عن شعيرة إسلامية يرى فرضيتها.

يتكئ الشاعر على أسلوب النداء تعبيراً عن علو مكانة هذا الحاكم في الحالين في الإسرار والجهار.

وهو مقبل على الله رجاع إليه، يخشاه ويتقيه، سنده الله واعتماده عليه.

يكسو الشاعر بيته بنغمة مميزة، فالبيت يتكون من مبتدأ مؤخر وخبر مقدم، والخبر المقدم عبارة عن حرف جر مع لفظ الجلالة، فالاتكاء والاعتماد على الله وحده في الأمور المذكورة.{الطويل}

هُوَ المَلِكُ المَشفوعُ بِالنُسكِ مُلكُهُ فَيا فَضلَ ما يَخفى وَيا سَروَ ما يَبدو
إِلى اللَهِ أَوّابٌ وَلِلَّهِ خائِفٌ وَبِاللَهِ مُعتَدٌّ وَفي اللَهِ مُشتَدُّ[3]

إن عزة ابن زيدون تترفع على الأشخاص والأماكن، فالأرض التي تترفع عليه ولا يجد فيها قراراً، يتركها، والمقصود أهلها، فإنه يرسل لها رسالة عن طريق مخبر وليس هو يوصلها لها ترفعاً عليها كما ترفعت عليه، أنه لن يهلك نفسه حسرة وألماً على فراقها. ونلاحظ الحضور القوي لذات الشاعر (عَنّي –لَستُ).{الكامل}

(١) الديوان، ص٣٢٧ .
(٢) الديوان، ص٦٤ .
(٣) الديوان، ص٣٦١ .

مَن مُبلِغٌ عَنّي البِلادَ إذا نَبَت أَن لَستُ لِلنَفسِ الأَلوفِ بِباخِعِ[1]

عندما انتصر المعتضد على ابن الأفطس وأحلافه، ذكر ابن زيدون أن ما أصابهم كان نتيجة إغراء نفوسهم الضالة لهم التي أوقعتهم في الهلاك، وعندما وقعت عليهم الهزيمة شرع كل يتخلى عن الآخر، ويعتقد أنه بهذا التخلي يحسن العمل. وهذه الصورة يستلهمها الشاعر مما ورد في القرآن في عدة مواضع من تخلي الشيطان عن الإنسان، أو تخلي القرناء بعضهم عن بعض. واستعمال الشاعر للهوي أفادت السقوط الذي لا قدرة على النهوض بعده.{الطويل}

قَرينٌ لَهُ أَغواهُ حَتّى إذا هَوى تَبَرَّأَ يَعتَدُّ البَراءَةَ أَرشَدا[2]

يخاطب الشاعر المعتضد مهنئاً له في عيد الأضحى وأنه أنزله المكانة العالية، فجعل له المجلس الرفيع الثابت مع علية القوم، فصار يتمتع بما يتمتعون به من ظلال وثمار، وليس كغيره من الخدم والعامة الذين يقفون في الشمس ويحرمون أطايب الطعام. واستخدامه لدار المقامة كأنه يذكر بالجنة التي تتصف بالنعيم الخالد.{الطويل}

وَبَوَّأتَهُ دُنياكَ دارَ مُقامَةٍ بِحَيثُ دَنا ظِلٌّ وَذُلِّلَ مَقطِفُ[3]

يخاطب ابن زيدون المعتضد ويذكر له أنه يجر الدهر خلفه مطيعاً له ذليلاً، يتبع ما يمليه عليه من علم ومعرفة، فأمره بما تريد ووثق أوامرك عليه فحكمك ماض عليه؛ لينفذ كل ما تحب وتتمنى، وأخبره بما تريد لينفذ ما تأمره به. والأفعال كثيرة في الشطر الثاني دلالة على الحركة فهناك رغبات وآمال تحتاج إلى عمل لتحقيقها وأوامر تحتاج إلى تنفيذ. ويفتتح الشاعر بيته ب (ها) التي تفيد التنبيه، ويتبعها بضمير الغائب دلالة على غياب اختيار الدهر فهو خاضع منقاد لأمر الحاكم، فالأمر كله بيده ولذلك كرر الحكم مرتين (لِحُكمِكَ فَاِحتَكِم).{الطويل}

---

(١) الديوان، ص٤٠١ .

(٢) الديوان، ص٤٧٤ .

(٣) الديوان، ص٤٩٧ .

وَها هُوَ مُنقادٌ لِحُكمِكَ فَاِحتَكِم لِتَبلُغَ ما تَهوى وَمُرهُ لِيَصدَعا[1]

يلتفت ابن زيدون إلى أن أعظم الأرزاق ليست الأمور المحسوسة وإنما الأمور المعنوية، فيقول إن الله الذي وزع نصيب كل إنسان قد أعطاه هذا الحاكم بلا منّ ولا جزاء واصطفاه بأن وهب له طبعاً وأدباً جاوز حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بها. إن الفعل (حبى) متعد بذاته لا يحتاج حرف جر، لكن استخدم له الشاعر حرف الجر الباء إشارة إلى التصاق وملازمة الأخلاق الحسنة لهذا الحاكم. {مجزوء الكامل}

إِنَّ الَّذي قَسَمَ الحُظوظَ حَباكَ بِالخُلُقِ العَظيم[2]

يختم الشاعر قصيدته داعياً للمعتمد وأبيه المعتضد ألا يدركهما الفناء والانتهاء بقاء الدنيا، وإن اختفت أجسادهما فسيبقى ذكرهما العطر، ويربط دعاءه لهما بدوام الليل وبظهور الصباح، فهو أمر متكرر متتابع غير منقطع.{مجزوء الرمل}

وَابْقَيَا مَا جَنَّ لَيْلٌ أَوْ بَدَا صُبْحٌ فَأَسْفَرْ[3]

عندما خاطب من سجنه ابنَ جهور يذكر له ما كانت عليه علاقتهما، فآخر ما كانت عليه الرضا فلا سخط فيها بل السعادة والهناء والعذوبة، ولحسنها وطيبها كأنها رائحة المسك من أجمل العطور، ويستخدم التجسيم لذلك فعلاقتهما لا هجر فيها بل بينهما اختلاط وصل حد الاندماج، فهي علاقة حسنة طيبة كطيب ماء العين الموجودة في الجنة.{الخفيف}

إذ خِتامُ الرِضا المُسَوَّغِ مِسكٌ وَمِزاجُ الوِصالِ مِن تَسنيم[4]

يؤكد الشاعر مشاركة الحاكم الأجر مع رعيته سواء في أعمالهم الفردية أو الجماعية؛ لأنه هو الذي وجههم لها ويسر سبلها.

---

(١) الديوان، ص٥٥٥ .

(٢) الديوان، ص٢٠٣ .

(٣) الديوان، ص٦١٦ .

(٤) الديوان، ص٢٧٨ .

ويخاطب أبا الوليد مظهراً كرمه ومجده وآبائه وأجداده، أن كثيراً ما يستخبر الناسُ عنهم وعن حالهم وحكمهم، فيرد عليهم الشاعر رداً كافياً شافياً، ولدلالة عظم كرمهم ومجدهم أجاب ب (هناك) أي بعيد لا يدرك، كرمهم متتالٍ متتابع، ومجدهم فريد من نوعه لا مثيل له.{الكامل}

فَلتَضرِبَن مَعَهُم بِأَوفَرِ شِركَةٍ في أَجرِهِم مِن موتِرٍ أَو شافِعِ[1]

{الطويل}

وَكَم سائِلٍ بِالغَيبِ عَنكَم أَجَبتَهُ هُناكَ الأَيادي الشَفعُ وَالسُؤدَدُ الوِترُ[2]

إن استلهام الشاعر من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أكبر مؤثر في وجدان من يخاطبه ومقنع له بما يقدمه من أفكار، إضافة إلى وضوحها عموماً للمتلقي وتأثره بها.

(١) الديوان، ص٤٠٥ .

(٢) الديوان، ص٥٤٨ .

المبحث الرابع: المصطلحات العلمية وتوظيفها في التجربة الشعرية:

هذا المبحث أطرف مبحث في الدراسة، حيث إن فيه لفتات عقلية علمية رائقة، تستشعر النفس عند معرفتها لذة ومتعة، وهو يدل على دقة فهم وتعمق من الشاعر في العلوم وإبراز لتمكنه فيها. ولا يخفى مدى اندماج العلوم فيما يصوغه الشاعر وما يؤلفه من صور.

فعندما يخاطب محبوبه الذي يتسم بنقض العهود يختم الشاعر قصيدته بفرض أنه لو حلف يميناً أن هجر المحبوب سيكون سبباً في موته فلن يعتبر مخلفاً في يمينه ولن يبر بها فلا يقع عليه إثم وكفارة، فالمحبوب قاتل والشاعر مقتول. ويلاحظ كثرة المؤكدات وضمير المتكلم، وهذا يشف عن اهتمام الشاعر بذاته وتأكيده لفكرته. {الطويل}

وَلَو أَنَّني أَقسَمتُ أَنَّكَ قاتِلي وَأَنِّيَ مَقتولٌ لَما قيلَ حانِثُ(١)

تأخر الشاعر على صديقه الذي طلب منه أن يريه شيئاً من شعره فبعث إليه بقصيدة يذكر فيها أنه قال له أن تسويف ومدافعة المليء الذي يملك المال من مناهل عدم وضع الشيء في موضعه، فإنه سيجد عذلاً عند عودته. فيخبر ابنُ زيدون صاحبه أنه أحسن به الظن واعتقد أنه لو جاء مورد شعره سيجده غزيرا ممتلئاً، لكن ربما يجد القليل فيعود لائماً عاذلاً.{المنسرح}

وَقُلتَ مَطلُ الغَنِيِّ وِردٌ مِنَ الـ ظُلَمِ يُلَقّى مُلاوِمَ الصَدَرِ(٢)

في قصيدة ابن زيدون المليئة بالحكم التي مطلعها: ما على ظني باسُ، يذكر بيتاً مخاطباً صديقه أبا حفص بن برد مظهراً محبته له مستعيراً من علم أصول الفقه، فيذكر له أن عشقه له أمر لا مراء فيه ولا جدال، مثل النص من القرآن أو السنة

(١) الديوان، ص١٨٤ .

(٢) الديوان، ص٢٠٨ .

الصحيحة فإنه لا يمكن نفيه وإنكاره، ولا يعارضه شي من العقل. وفي استعمال (لم) دلالة على دوام محبته وعدم تغيرها.{مجزوء الرمل}

وَوِدادي لَكَ نَصٌّ لَم يُخالِفهُ القِياسُ[1]

بعد أن هاجر ابن زيدون إلى إشبيلية وفي أول قصيدة ألقاها بين يدي المعتضد وقد سبقته الأقوال المتعددة في سبب هجرته فينادي الشاعر مستفهماً عمن شكك وليس بمستيقن ويطلب منه الإقبال، فإن الشاعر يخبره أن شكوكه ليست عن يقين عياناً بل هي أمور مختلطة في ذهنه تتأرجح بين أمور عدة وتتلاعب بها المتناقضات.{الكامل}

يا هَل أَتى مَن ظَنَّ بي فَظُنونُهُ شَتّى تَرَجَّح بَينَها الأَضدادُ[2]

يظهر ابن زيدون معرفته بعلم الحديث وذلك عندما تحدث عن المعتمد وأبيه، فيذكر أن المعتمد أخبر وذكر سخاء وكرم أبيه، ويكفيه فخراً قرب نسبه منه، فهو إذن مثله كرماً وسخاء، أو أنه قريب عهد به وبكرمه فخبره صحيح لا مرية فيه. استهل الشاعر بيته بكلمة حدثتنا، و (حدثنا) "من ألفاظ التحمل والأداء، ويستخدم فيما سمعه من لفظ الشيخ"[3]، كما ذكر قرب السند وهو ما يعرف عند علماء الحديث بالسند العالي وهو "السند الذي قل عدد رجاله بالنسبة إلى سند آخر يرد به الحديث نفسه"[4]. وكان جده لأمه "من العلماء المرموقين وأنه ذو بصر بالحديث"[5]. {المتقارب}

---

(١) الديوان، ص٢٧٥ .

(٢) الديوان، ص٤٥٣ .

(٣) آبادي، محمد أبو الليث الخير، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه، ط١، الأردن: دار النفائس، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٩م، ص٥٣ .

(٤) السابق، ص٧٣ .

(٥) الديوان، ص٢٢ .

حَدَّثْتَنَا عَنْ سَرْوِهِ نَاهِيكَ مِنْ قُرْبٍ سَنَدْ[1]

يستحلف الشاعر مستفهماً متعجباً ويوجه خطابه إلى محبوبه عن سوء جزائه له، هل كان ذلك الهجر خطأً منه أم عمداً، وبالتأكيد الشاعر يريد الثانية بدليل استعماله لثلاث مفردات مع المحبوبة (عامداً ظلماً وعدواناً)، بينما في الأول استعمل كلمة واحدة وهي (خطأ).{البسيط}

بِاللَهِ هَل كانَ قَتلي في الهَوى خَطَأً أَم جِئتَهُ عامِداً ظُلماً وَعُدوانا[2]

عندما أمر الأمير بكسر دنان الخمر تذكر الشاعر الساقية، فذكر أن مما يزيد وجع القلب حزناً، الهجران وتأخير اللقاء، وهذا مما يمدد ويزيد تعب من يريد أخذ حقه ومعه حكم من القاضي، بينما ألم العشق وعذابه عاجل غير متأخر. والمدود الموجودة في البيت أفادت طول المدة والتأخير في الوصل.{الطويل}

كَفى لَوعَةً أَنَّ الوِصالَ نَسيئَةٌ يُطيلُ عَناءَ المُقتَضي وَالهَوى نَقدُ[3]

يذكر ابن زيدون عن المحبوب أن فعله مكروه مذموم، فإذا وعد أخلف المواعيد والمواثيق، وهو لا يرى قيمة للناس بل تعمد قتلهم بعينيه الفاتنتين ويأذن لهما في قتلهم، ولا قود عليه ولا قصاص. ولتأكيد الشاعر على فتنة هاتين العينين جعلهما نائب فاعل{مجزوء الكامل}

سَيِّئُ عَهْدٍ أُرْخِصَتْ عَيْنَاهُ فِي قَتْلِ العَمَدْ[4]

يمدح الشاعر المظفر بن الأفطس وأنه أجدر الناس وليس الملوك فقط بأن يقول لهم افعلوا كذا واجتنبوا كذا؛ لما يتمتع به من علم وفقه، وهو أعلم الحكام بأمور السياسة وشؤونها وما يستحق الإبرام وما يستحق النقض لما يتمتع به من حكمة

(١) الديوان، ص٦٠١ .
(٢) الديوان، ص١٧٩ .
(٣) الديوان، ص٣٥٤ .
(٤) الديوان، ص٥٩٧ .

وسداد في الرأي، فهو أولى الناس بالحل والعقد. وتنكير الشاعر (بِأَمرٍ وَنَهيٍ)، (بِعَقدٍ وَحَلّ) أفاد الإطلاق له في هذه الأمور.{المتقارب}

وَأَحرى الأَنامِ بِأَمرٍ وَنَهيٍ وَأَدرى المُلوكِ بِعَقدٍ وَحَلّ[1]

يستثني ابن زيدون ابنَ الأفطس من صفة غالبة على الحكام وهي الظلم في الأحكام والخيانة في الأموال، فالحكام إذا تولوا الملك ظلموا فلا يوجد من يردعهم، ويأخذون ما يشاؤون من الأموال التي يتحصلون عليها بسهولة وفيها حق للعامة وغيرهم، فيقسمون المال على المقربين منهم ويتركون غيرهم، فلا يوجد من يحاسبهم. وأبدع الشاعر في توظيف إذا وإن، فالظلم متحقق وممكن يقينا من الحاكم على رعيته، لكن الغلول في المال مشكوك فيه، وذلك لأن الفيء لا يأتي إلا من قتال لأعداء دين الله وغيره من الحكام لا يجاهدون بل متخاذلون فظلمهم في مال الفيء غير متحقق فاستعمل له (إن).{المتقارب}

سِواكَ إِذا قُلِّدَ الأَمرَ جارَ وَغَيرُكَ إِن مُلِّكَ الفَيءَ غَلّ[2]

ربما يتبادر إلى الذهن التعارض بين مصطلحات العلوم والشعر لكم ابن زيدون استطاع توظيفها بسلاسة وسهولة لا يجد فيها القارئ أي نشاز أو غرابة، وخير دليل ما تقدم من شواهد.

---

(١) الديوان، ص٤٢٠ .

(٢) الديوان، ص٤٢٥. الفيء: كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب. ابن كثير، ٣٥٨/٤. وما كان لنبي أن يغل: يقسم لبعض السرايا ويترك بعض. ابن كثير، ٤٣٠/١ .

المبحث الخامس: شخصيات دينية وتاريخية:

من طبيعة الإنسان أن يتخذ له قدوة يأتسي بها، وخير من يأتسي به الإنسان الأنبياء وأصحاب الفعال الحسنة، "والشاعر حينما يستلهم شخصية تاريخية فهو لا يسعى إلى ذكر الشخصية بقدر ما يسعى إلى استلهام دلالاتها ورمزيتها بطريقة إبداعية تؤمن لها ديمومتها"(١). وذكر الشخصية التاريخية فيه أوثق الصلة بربط الماضي بالحاضر وأخذ العظة والعبرة منه.

ذكر ابن زيدون من تراثه شخصيات دينية توزعت بين أنبياء وغير أنبياء، طائعين وعاصين، صحابة وغير صحابة، ونبدأ بالأنبياء ومن يتصل بهم.

يخاطب ابن زيدون المعتضد وأنهم أبصروه يجلس في أعلى المكان الذي أعده لتعبده، وكأنما يتكلف النظر لهم من مكان مصلاه لانشغاله بالعبادة بوجه جميل كجمال يوسف #، وانشغال بالتعبد رغم أعباء الحكم كداود #. فهو مشغول بالعبادة، وأفادت الشدة تكلف النظر إليهم (تَطَلَّعَ).

فيكون التراث الديني داخل النص شفرة أو رمزاً يستخدمه الشاعر بذكاء بعد أن يضفي عليه سمات خاصة ليكون الارتباط المعنوي والفني في فضَاء النص متلاحِماً مع هذه الشفرة، بواسطة الإشارة إلى قصة ما أو شخصية أو حدث أو مكان يتطلبه الموقف الراهن، يكون الرمز التراثي قيمة معنوية في النص وفنية، ترفد القصيدة بروح خاصة، وتفتح مجالات واسعة للتأويل تعطي للنص قيمة عالية(٢). {الطويل}

رَأَيناكَ في أَعلى المُصَلّى كَأَنَّما تَطَلَّعَ مِن مِحرابِ داوُدَ يوسُفُ(٣)

---

(١) الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي، ص١٤١.

(٢) عبد المجيد، مريم، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، ص١١٨.

(٣) الديوان، ص٤٩٦ .

وبما أن ابن زيدون قد هرب من السجن فلابد أن يذكر موسى #، فيتحدث عن نفسه ويعلنها صراحة أنه (فررتُ)، بل كررها ثلاث مرات، ثم يعلل لذلك، فإذا اتهمه الناس أن الفرار خزي ومنقصة، فإنه يستشهد بسيدنا موسى # وأنه راغ من فرعون وقومه عندما أرادوا أن يقتلوه ظلماً وعدوناً، وهذا الفعل منه عليه الصلاة والسلام لم يقلل من شأنه، فاقتدى به في هذا الأمر، فهو محبوس ظلماً فهرب ليثبت براءته.

"الشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي فإن لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية والقابلة للتجدد – على امتداد التاريخ – في صيغ وأشكال أخرى"[١].{الطويل}

فَرَرتُ فَإِن قالوا الفِرارَ إِرابَةٌ فَقَد فَرَّ موسى حينَ هَمَّ بِهِ القِبطُ[٢]

يفتح الشاعر في بعض نصوصه آفاقاً لشخصيات دينية تأخذ موقفاً مميزاً في النص[٣]، فإن كان ابن زيدون قد ذكر موسى # فإنه قد ذكر أمه كذلك، وهو يخاطب والدته التي ما فتئت تبكي عليه، فيصبرها الشاعر ويسليها أن لها أسوة وقدوة في أم موسى # التي قذفت به في اليم امتثالاً لما أوحاه الله لها. وأعتقد أن الشاعر لم يوفق في المشابهة بين الحالين، فأم موسى # هي التي ألقت به فهذا أشد ألماً وصعوبة؛ لأنها ترميه في الهلاك بيديها، أما أم الشاعر فلا يد لها في إلقاء ابنها في السجن فهي ضعيفة لا خيار لها سوى الصبر والانتظار.{الطويل}

وَفي أُمِّ موسى عِبرَةٌ أَن رَمَت بِهِ إِلى اليَمِّ في التابوتِ فَاِعتَبِري وَاِسلي[٤]

---

(١) زايد، علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، ص١٢٠.

(٢) الديوان، ص٢٩٢ .

(٣) عبد المجيد، مريم، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، ص١٢٥.

(٤) الديوان، ص٢٦٤ .

وبما أننا ذكرنا النساء فإن الشاعر ذكر أمنا حواء عليها السلام في قصيدته التي عزى فيها أبا الوليد بن جهور، فيحضه ويواسيه أن يتصبر بها عليها السلام فهي أم البشر وفقدها أبناؤها، وكذلك الأجيال من بعدها كل جيل يفقد أمه، فلك أسوة في فقد العظيمات من النساء.

يذكر ابن زيدون أن الموت يصيب جميع الأمهات فعندما عزى أبا الوليد في أمه ذكره بأمهات المؤمنين رضي الله عنهن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، فقد طال مقامهن في قبورهن من قرون عدة، وأصبحت منازلهن منذ سنين طويلة خلاء لا يسكن فيها.{الطويل}

تَعَزَّ بِحَوّاءَ الَّتي الخَلقُ نَسلُها فَمِن دونِها في العَصرِ يَتبَعُهُ العَصرُ
نِساءُ النَبِيِّ المُصطَفى أُمَّهاتُنا ثَوَينَ فَمَغناهُنَّ مُذ حُقُبٍ قَفرُ[1]

كان للأنبياء وجود فاعل في الأرض ووجودهم يوفر صلة إدراك خاصة بين العالم الروحي والعالم الحسي[2].

ويذكر الأنبياء عموماً، فعندما عزى المعتضد في ابنته وحثه أن يقتدي بالسابقين الغابرين، فإن مصيبة الموت قد اختطفت الأنبياء عليهم السلام من قبل، ولكن ابن زيدون عبر ب (غال) التي تفيد الخديعة والقتل من حيث لا يعلم وهو غير مستعد، ولم يوفق الشاعر في اختياره لهذه اللفظة فمعلوم أن الأنبياء عليهم السلام يخيرون قبل أن تقبض أرواحهم[3]. لكن ربما لأن ملك الموت يأتي لبعض الأنبياء

---

(١) الديوان، ص٥٤٥ .

(٢) عبد المجيد، مريم، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، ص١٢٠.

(٣) كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يقولُ وَهو صَحِيحٌ: إنَّه لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حتَّى يُرَى مَقْعَدُهُ في الجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرُ قالَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا نَزَلَ برَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وَرَأْسُهُ علَى فَخِذِي غُشِيَ عليه سَاعَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فأشْخَصَ بَصَرَهُ إلى السَّقْفِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأعْلَى. قالَتْ عَائِشَةُ: قُلتُ: إذًا لا يَخْتَارُنَا. قالَتْ عَائِشَةُ: وَعَرَفْتُ الحَدِيثَ الذي كانَ يُحَدِّثُنَا به وَهو صَحِيحٌ في قَوْلِهِ: إنَّه لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ. =

على صورة بشر[1]، فاستعمل الشاعر هذه اللفظة، كما جاء في قصة موسى #. {مجزوء الرمل}

فَتَأَسَّ إِنَّ ذاكَ الخَطبَ غالَ الأَنبِياءَ[2]

أرسل ابن زيدون قصيدة إلى صديقه ابن برد من السجن، يصف حاله وأنه أُلقي ونبذ مثل السامري الذي كان يطلب من بني إسرائيل ألا يمسوه لمرض يصيبه من لمسهم إياه، ولكن الشاعر يرى أنه لا يستحق هذا حيث ألقوه في السجن دونما سبب أما السامري فكان قد دعا بني إسرائيل إلى الكفر. وبناء الفعل للمجهول (يُتَّقى) أفاد العموم والشمول من قريب وبعيد.{مجزوء الرمل}

وَرَأَوني سامِرِيّاً يُتَّقى مِنهُ المَساسُ[3]

يختم الشاعر إحدى مقطوعاته في المحبة والعشق بذكر أن حال العشاق حال مزرية وأنهم مطروحون على الأرض فقدوا وعيهم وإدراكهم بسبب العشق في أوساط بيوتهم، وحالهم في غيابهم عن وعيهم مثل أصحاب الكهف الذين لم يشعروا بشيء مما حولهم فلم يعلموا كم مكثوا في كهفهم، وكذلك هؤلاء العشاق لم يعودوا يشعرون

= قالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تِلكَ آخِرُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بهَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ قَوْلَهُ: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى. النووي، يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٩/١٥.

(١) قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُرْسِلَ مَلَكُ المَوْتِ إلى مُوسَى #، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، فَرَجَعَ إلى رَبِّهِ فَقالَ: أَرْسَلْتَنِي إلى عَبْدٍ لا يُرِيدُ المَوْتَ، قالَ فَرَدَّ اللَّهُ إلَيْهِ عَيْنَهُ وَقالَ: ارْجِعْ إلَيْهِ، فَقُلْ له: يَضَعُ يَدَهُ علَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَهُ، بما غَطَّتْ يَدُهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ، سَنَةٌ، قالَ: أَيْ رَبِّ ثُمَّ مَهْ؟ قالَ: ثُمَّ المَوْتُ، قالَ: فَالآنَ، فَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بحَجَرٍ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: فلوْ كُنْتُ ثَمَّ، لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إلى جَانِبِ الطَّرِيقِ، تَحْتَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ. النووي، يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، ١٢٧/١٥- ١٢٨.

(٢) الديوان، ص٥٦٠ .

(٣) الديوان، ص٢٧٥ .

لا بالزمان ولا بالمكان. وقد جانس الشاعر بين صرعى وعراصهم، وهذا يطبع المشهد بشدة اختلاط واختلال عقولهم. والجناس مما يمنح البيت تناغماً موسيقياً يرسخ دلالة الأبيات ويمنحه رونقاً وبهاء[١].{ البسيط }

تَرَى المُحِبِّينَ صَرْعَى فِي عِرَاصِهِمْ كَفِتْيَةِ الكَهْف مَا يَدْرُونَ مَا لَبِثُوا[٢]

يظهر الشاعر معرفته التاريخية فعندما عزى أبا الوليد في وفاة والده أبي الحزم يذكر صفاته وشمائله، فهو ملك عظيم الهمة، يسير سيراً حثيثاً وبعزيمة، متبعاً خطا أبيه، مثلما فعل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، فقد كان أبوه صخر (أبو سفيان) سيد مكة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، كذلك فعل معاوية رضي الله عنه وصار وأوجد الخلافة الأموية، فكل منهما تابع أباه في مجده وسؤدده.

والشخصيات التاريخية تعتبر رموزاً يبحث من خلالها الشاعر "عن أنساق عالية المستوى دلالياً لتكون ذاكرة مهيمنة على النص في أسلوب يتكئ على إيجاد قيمة حيوية لتفاعل الرمز مع التجربة الشعرية الانفعالية ورفعها إلى مستويات روحية عليا"[٣].{الطويل}

هُمَامٌ جَرَى يَتْلُو أَبَاهُ كَمَا جَرَى مُعَاوِيَةٌ يَتْلُو الذِي سَنَّهُ صَخْرُ[٤]

يخاطب ابن زيدون ابن جهور، ويؤكد له في قصائده التي بعث بها من سجنه، كما أكد في رسالته الجدية أنه لم يعمل ذنباً يستوجب هذه العقوبة، فهو لم يكن ممن أهاج حرب الفجار في الجاهلية، ولم يكن من المرتدين الذين اتبعوا مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة، بل كل ذنبه تهم وظنون لا ترقى رقي هذه الذنوب. لقد كرر الشاعر النفي (لم) إشارة إلى أنه لا يستحق هذه العقوبة لعمل لم يقم به.{الطويل}

---

(١) الجبوري، جمعة حسين، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي، ص٧٠.

(٢) الديوان، ص١٧٦ .

(٣) عبد المجيد، مريم، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، ص١٢٧.

(٤) الديوان، ص٥٢٤ .

فَلَم أَستَثِر حَربَ الفِجارِ وَلَم أُطِع مُسَيلَمَةً إِذ قالَ إِنّي مِنَ الرُسلِ[1]

وفي رحلته الأولى إلى إشبيلية يؤكد ابن زيدون أحقية المعتضد بالحكم، بل إن من يؤمن بخلاف ذلك كأنه خارج عن ملة الإسلام، فيكون مثله مثل من أعطى أوكد العهود، أن سجاح نبية فهو مرتد، واختار الشاعر امرأة وليس رجلاً دلالة على بشاعة من لا يرى أحقية المعتضد بالملك، وسخافة من لا يرى ذلك كأنه يولي امرأة هذه الأمور .{الوافر}

وَمُعتَقِدُ الرِياسَةِ في سِواهُ كَمُعتَقِدِ النُبُوَّةِ في سَجاحِ[2]

كان ابن زيدون عالماً بتاريخ العرب وأنسابهم، ومن مبالغاته أنه يفضل المعتضد على بعض أعلامهم، فقبيلة زبيد اليمنية التي منها عمرو بن معديكرب المعروف بالشجاعة والبسالة، إذا ذُكر المعتضدُ تنساه قبيلته، وكذلك كعب بن مامة الإيادي الذي يضرب به المثل في الجود والإيثار، أمام المعتضد تميل عنه ولا تلتفت إلى مجده وإنما تذكر مجد المعتضد فقط. فهذان العلمان أعرضت قبيلتاهما عن مجديهما، والمفترض أن القبيلة هي التي تتعصب وتعظم من صنائع وأمجاد أفرادها، لكن صفات جلال المعتضد أشغلتهم عن أمجاد أفرادهم.} الكامل {

نَسِيَت زَبيدٌ عَمرَها بَل أَعرَضَت عَن وَصفِ كَعبٍ بِالسَماحِ إِيادُ[3]

لقد كانت نماذج الشخصيات التاريخة التي اختارها ابن زيدون نماذج مشهورة معلومة السيرة، لا يستغلق على السامع معرفة المراد من ذكرها.

(١) الديوان، ص٢٦٩ .

(٢) الديوان، ص٤٣٣ .

(٣) الديوان، ص٤٥٩ .

المبحث السادس: إشارات دينية منوعة:

ذكر ابن زيدون أموراً عامة تتعلق بالموروث الديني كان أبرزها ما يتعلق **بالدين** عموماً وما يرتبط بالتقوى، فتارة الدين يلجأ إلى الحاكم، ممتنعاً متوقياً به بقوة، ودلالة ذلك زيادة المبنى في (مُستَعصِماً) بحرمة وحماية من يتصف بالوضاءة وحفظ العهود. وكيف سيحفظ الدين؟ لن يتم ذلك إلا بالقتال في سبيل الله، قتالاً حقاً للمشركين الذين يعبدون الأوثان. واستعمل الشاعر التجسيم تقريباً وتقوية للصورة. {المتقارب}

وَلاذَ بِهِ الدينُ مُستَعصِماً بِذِمَّةِ أَبلَجَ وافي الذِمَم
وَجاهَدَ في اللَهِ حَقَّ الجِها دِ مَن دانَ مِن دونِهِ بِالصَنَم(١)

وتارة يجسد الدين على أنه وجهٌ والحاكم هو جبينه المضيء الأبيض، ولو كان الحاكم عيناً لكان سوادها، فالمعنى تميز هذا الحاكم بين أمثاله من الحكام، فهو قائم بدينه خير قيام، وحاكم محنك بين الملوك. لقد كان تركيز الشاعر على الحاكم الحاضر بمفاخره، فخاطبه بضمير المخاطب (أنت) مرتين.{الكامل}

الدينُ وَجهٌ أَنتَ فيهِ غُرَّةٌ وَالمُلكُ جَفنٌ أَنتَ فيهِ سَوادُ(٢)

والدين يعتمد عليه ويتكأ كي يرتفع، فهو حاميه من السقوط، وعَلَم الحكم والملك لا يحمله سواه، فبه وحده يرتفع شأن الدين والسلطان.{الطويل}

فَما لِعِمادِ الدينِ حاشاكَ رافِعٌ وَلا لِلِواءِ المُلكِ غَيرَكَ حامِلُ(٣)

وعندما خاطب ولادة مظهراً وفاءه لها وصدقه في محبته، جعل ذلك مثل الدين والمعتقد الذي يعتنقه، فلا يعقل أن يغير حبه لها كما لا يعقل أن يغير دينه.{البسيط}

لَم نَعتَقِد بَعدَكُم إِلّا الوَفاءَ لَكُم رَأياً وَلَم نَتَقَلَّد غَيرَهُ دينا(٤)

---

(١) الديوان، ص٤١٤ .
(٢) الديوان، ص٤٦٣ .
(٣) الديوان، ص٣٩٧ .
(٤) الديوان، ص١٤٢ .

أمر آخر ذكره عن الدين وهو **التقوى**، فبعد أن ذكر عن الحاكم أنه يُرجع للدين مكانته العالية ذكر أنه مُظهِر لآثار وعلامات مخافة الله بعد أن امحت، ورافع ومبرز لعلامات الهداية بعد اختفت وغابت. وفي تكرار الشاعر ل (إذ) أوجد نغمة موسيقية في نهاية البيت.{المتقارب}

وَيوضِحَ رَسمَ التُقى إِذ عَفا وَيُطلِعَ نَجمَ الهُدى إِذ أَفَل[1]

الذين يسألون عن المعتمد وصفاته يحشد لهم الشاعر مجموعة من الصفات التي يتصف بها، ويبدأ بيته ب (هناك) دلالة على علو مكانة المعتمد في التقوى والعلم والحلم والعقل والكرم والشجاعة وبراعة النظم وروعة الشعر، وبدأ بالتقوى لأهميتها.{الطويل}

هُنَاكَ التُّقَى وَالعِلْمُ وَالحِلْمُ وَالنُّهَى وَبَذْلُ اللُّهَا وَالبَأْسُ وَالنَظْمُ وَالنَثْرُ[2]

أرسل الشاعر إلى المعتمد هدية وشفعها بأبيات جاء في بدايتها هذا البيت الذي يذكر فيه الخمر التي طعمها مثل العسل، وأنها لا مكان لها عند المعتمد لخشيته لله عز وجل فرواجها عنده بائرة غير نافقة، وفي إضافة كاف الخطاب للتقوى دلالة على التصاق التقوى بهذا الحاكم ولزومه لها.{مجزوء الخفيف}

وَجَدَت سوقَ ذَوبِها عِندَ تَقواكَ كاسِدَه[3]

ثم عدل الشاعر عن أبياته السابقة وجاء بأبيات أخرى جاء منها البيت التالي الذي ذكر فيه التقوى كذلك لكن بصورة أجمل، فالمعتمد اختار وفضل ما اعتاد فعله من مخافة الله فهو يرجع عليه بكل خير، وهو يحرص ويطمع في الثواب من عند الله، وليس أي ثواب بل الثواب العظيم الكثير. ويلاحظ الحضور القوي لضمير المخاطب، فالخيار له والقرار قراره.

---

(١) الديوان، ص٤٢٠ .

(٢) الديوان، ص٥٧٥ .

(٣) الديوان، ص٢٢٤ .

وهذا البيت أبلغ من البيت السابق حيث في الأول جاءت إليه الخمر فوجدته معرضاً عنها، ولا يُدرى ما سبب ذلك هل هو مرض أو حزن أو غيره، أما البيت الثاني فقد جعل اختيار التقوى ومخافة الله خيار المعتمد لعلمه بحرمتها ورغبته في ثواب الله عز وجل.{البسيط}

آثَرتَ عائِدَةَ التُقى وَرَغِبتَ في الأَجرِ الجَزيل[1]

ويصف ابن زيدون أبا الحزم بأن ما تخفيه نفسه مضيء نوراً وعامر بتقوى وخشية الله عز وجل، وما يبدو منه اختلط وامتزج بالكرم والعطاء فباطنه حسن وظاهره حسن. والبناء للمجهول (أُقتبِسَ-أُشرِبَ) أفاد عدم تكلفه لهذه الأمور، بل هي دون تكلف منه.{السريع}

ذو باطِنٍ أُقتبِسَ نورَ التُقى وَظاهِرٍ أُشرِبَ ماءَ السَماح[2]

ويستعمل أسلوب المغايرة، فإذا كان من صفات الحاكم الممدوح الصدق والأمانة والتقوى، فإن من صفات الخارجين عليه الكذب والخيانة وقلة الديانة، فهو يصفهم بأنهم رموا وأبعدوا عن أنفسهم خشية الله وجعلوها خلف ظهورهم؛ لأنهم أصبحوا يكرهون من يتصف بمخافة الله ويتصف بالكرم، فطاعة ولي الأمر من طاعة الله ورسوله، وتعبير الشاعر ب (غدا) إشارة إلى استمراريتهم في بغضه من أول النهار حتى آخره، وهم ليسوا من المتقين ليس بسبب حربهم وخروجهم عليه، بل بسبب أمر قلبي وهو بغضه، فالواجب محبته وعدم كرهه فضلاً عن الخروج عليه ومحاربته.{الكامل}

وَنَبَذتُمُ التَقوى وَراءَ ظُهورِكُم فَغَدا بَغيضَكُمُ التَقِيُّ الأَكرَمُ[3]

يجسد الشاعر التقوى والهداية في شخص أم المعتضد، لكنهما رحلا برحيلها، وكرر الشاعر (أنَّ) تأكيداً وتثبيتاً لفكرته، ويلاحظ التدرج الموجود في البيت، ففي

(١) الديوان، ص٢٢٥ .

(٢) الديوان، ص٢٤٨ .

(٣) الديوان، ص٣١٤ .

الشطر الأول أخبرتْ وأعلمت بالفراق، وفي الشطر الثاني قد رحلت وانقطعت. {الطويل}

وَأَنَّ التُقى قَد آذَنَتنا بِفُرقَةٍ وَأَنَّ الهُدى قَد بانَ مِنكِ فَوَدَّعا[١]

إن أعظم الصفات التي يطلقها الأندلسيون على صاحب المكانة عندهم هو لقب **الفقيه**، فوصف ابن زيدون الحاكم به وألحق به بصفات أخر، كلها تدل على علو شأن هذا الحاكم المتصف بها. فهو حاكم صاحب عزيمة وإرادة، وهو بهذه الصفات جمال للدنيا ومن فيها، وهو يتصف بصفة الملك وحكمة السياسة، وجمع معها التبحر في العلوم النقلية، والكتابة، والعلوم العقلية. واستعمل هذه الصفات أسماء دلالة على ثباتها وملازمتها للمتصف بها.{الطويل}

هُمامٌ يَزينُ الدَهرَ مِنهُ وَأَهلَهُ مَليكٌ فَقيهٌ كاتِبٌ مُتَفَلسِفُ[٢]

يجسد الشاعر **الإخلاص** وهو محض العبادة لله عز وجل، فيجعله يستعبر ويتهيأ للبكاء يوم وفاة أم المعتضد، بل فاضت دموعه ونزلت حزناً على المتوفاة، ولفراقها اشتاق وتعطف إيمانها المتحقق بالله عز وجل فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

لقد كانت علماً من **الإيمان** مرفوعاً هادياً للآخرين، ما لبثت أن سقطت وأودعت القبر، وكانت حبلاً متيناً من التقوى ضعف قليلاً قليلاً ثم تمزق وتفرق، يشيد الشاعر بإيمانها وتقواها. وفي مجانسة الشاعر بين (هوى–وهى) إشارة من الشاعر إلى تعدد صفاتها الحسنة ولكن أدركها الموت والزوال.{الطويل}

لَقَد أَجهَشَ الإخلاصُ بِالأَمسِ باكِياً عَلَيكِ كَما حَنَّ اليَقينُ فَرَجَّعا[٣]

{الطويل}

مَنارٌ مِنَ الإيمانِ لَم يَعدُ أَن هَوى وَحَبلٌ مِنَ التَقوى وَهى فَتَقَطَّعا[٤]

---

(١) الديوان، ص٥٤٩ .

(٢) الديوان، ص٤٨٦ .

(٣) الديوان، ص٥٤٩ .

(٤) الديوان، ص٥٥٠ .

يذكر الشاعر ولادة وحزنه على فراقها، حيث إنه يوم تحوله عنها ورحيله كأنه نزل عليه الحزن متتابعاً متتالياً كقارئ القرآن عندما يقرأ سوره، ويقرأها من المصحف وليس حفظاً، فعندما يقرأها من المصحف تكون سريعة متتابعة دون توقف، وكذلك حزنه متصل غير منقطع. لكنه كان صابراً محتسباً على قدر الله. يلاحظ تكرار (نا) المتكلمين ٤ مرات، فالحزن والصبر للجميع وليس فرديا.{البسيط}

إنّا قَرَأنا الأَسى يَومَ النَوى سُوَراً مَكتوبَةً وَأَخَذنا الصَبرَ تَلقينا[١]

وهذه الأمور المنوعة التي ذكرها أسهمت في إيصال وترسيخ ما يرمي إليه من أفكار ورؤى، كان لها أبلغ الأثر في التأثير على من يخاطبهم.

(١) الديوان، ص١٤٦ .

الخاتمة:

تناولت الدراسة الحديث عن التراث الديني عند ابن زيدون، حيث إن ديوان الشاعر اشتمل على كثير من مظاهر هذا التراث الديني، وقد جاء التراث الديني معبراً عن كثير من الأمور التي عايشها الشاعر وأثرت في حياته فوظفها التوظيف اللائق بها، وتنوعت وتعددت المظاهر التراثية التي استخدمها الشاعر، وتم تناولها تحليلاً وتفسيراً وبيان ما فيها من جمال أو نقص.

وخلصت إلى النتائج التالية:

١- شدة ارتباط ابن زيدون بالتراث الديني، وحسن توظيفه التوظيف الإبداعي بما يتناسب مع أحداث عصره.

٢- معظم أبيات الدراسة جاءت مرتبطة بغرضي المدح والغزل، وفي ذلك تأكيد على أنه لا تعارض بين الموروث الديني وجميع الأغراض الشعرية وخاصة الغزل، فالأمر في ذلك يعود إلى براعة الشاعر وإبداعه.

٣- تمتع ابن زيدون بعقيدة صافية وإيمان عميق بالغيبيات وممارسة للعبادات، اتضح ذلك من خلال الأبيات التي ذكرها في هذه الموضوعات.

٤- تحدث ابن زيدون عن المناسبات الدينية المعروفة كالجمع ورمضان والأعياد، ولم يتعرض لما هو غير مألوف كالمدائح النبوية لأنه يظهر أنها لم تكن منتشرة في عصره.

٥- أكثر ابن زيدون الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بما توافق معه حياته الاجتماعية والسياسية بل حتى العاطفية.

٦- تفوق الشاعر في توظيف المصطلحات العلمية ووظفها مما دل على مقدرة شعرية وتمكن علمي في العلوم التي ذكرها.

٧- الشخصيات الدينية والتاريخية أثرت النص بما يتلائم مع الشخصية التراثية والشخصية المعاصرة للشاعر.

٨- الأمور التي يتمحور حولها التراث الديني عند ابن زيدون تدور حول علاقات الشاعر بالحكام وعشقه وغرامه.

التوصيات:

١- كما أبدع ابن زيدون في توظيف الطبيعة والحب في أشعاره أبدع كذلك في توظيف التراث الديني، فلم يكن ضعيفاً في هذا المجال.

٢- ضرورة الالتفات إلى شعر ابن زيدون فهو مكنز ثقافي ولغوي وديني واجتماعي وسياسي.

٣- حث الباحثين على استجلاء ما في شعر ابن زيدون من إبداعات متنوعة.

٤- إجراء دراسات مماثلة عن ابن زيدون في الجانب السياسي وخاصة ما يتعلق بالوشاة.

٥- الدعوة إلى إبراز الجماليات عند ابن زيدون وخاصة فيما يُظن ضعفه فيه مثل التراث الديني.

٦- المزاوجة بين التراث والواقع الذي يعيشه الشاعر ومدى حسن توظيفه له.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. آبادي، محمد أبو الليث الخير، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه، ط١، الأردن: دار النفائس، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٩م.
٣. ابن بشكوال، الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١، القاهرة-بيروت: دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
٤. ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٥. ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ط٦، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
٦. ابن منظور، محمد بن مكرَّم، لسان العرب، صححها: أمين محمد عبد الوهاب – محمد الصادق العبيدي، ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي- مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٧. أحمد، فالح – سلمان، رضا، الاستفهام وأغراضه المجازية في شعر ابن زيدون.
٨. أصفهاني، محمد خاقاني – جلائي، مريم، التراث الديني في شعر سميح القاسم شاعر المقاومة الفلسطينية، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد: ٥، ربيع ١٣٩٠هـ – ٢٠١١م.
٩. البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، تحقيق: علي عبد الباسط مزيد- علي عبد المقصود رضوان، القاهرة: مكتبة الخانجي.
١٠. الجبوري، جمعة حسين يوسف، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين الموحدين، ط١، عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع – مؤسسة دار الصادق الثقافية، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

١١. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
١٢. الحيالي، نادية فتحي هادي حمادي، دلالة التكرار في نونية ابن زيدون، آداب الرافدين، العدد: ٨٦، ١٤٣٥هـ-٢٠١٣م.
١٣. زايد، علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
١٤. صاحي، كريم عجيل – عذافة، سعد هاشم، أسلوبية تركيب البيت الشعري في حائية ابن زيدون (ت٤٦٣)، واسط: مجلة كلية التربية، العدد: العاشر.
١٥. عبد الحسين، صادق جعفر، جماليات النسق الضدي – شعر ابن زيدون أنموذجاً، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد: السادس عشر، العدد: ٣، ٢٠١٣م.
١٦. عبد الرحمن، عائشة، تراثنا بين ماضٍ وحاضر، ١٩٦٨م.
١٧. عبد المجيد، مريم عبد النبي، التراث الديني في شعر بدر شاكر السياب، مجلة الخليج العربي، المجلد ٣٧، العدد: ١-٢، سنة ٢٠٠٩م.
١٨. عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، ط٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.
١٩. اللهيبي، حسين عبد العال، ظاهرة الاقتباس في شعر صفي الدين الحلي- دراسة بلاغية، مجلة القادية للعلوم الإنسانية، المجلد: السابع عشر، العدد: ٣، ٢٠١٤م.
٢٠. النووي، يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٢١. وهبه، مجدي – كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط٢، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.

مراجع نقلاً عن:

٢٢. بهجت، منجد مصطفى، البحر في شعر الأندلس والمغرب في عصر الطوائف والمرابطين، حوليات كلية الآداب، الحولية السابعة، الرسالة الأربعون، ١٩٨٦م.

٢٣. السوداني، ثامر خلف، وهج العنقاء: دراسة فنية في شعر خليل الخوري.

٢٤. عثمان، اعتدال، إضاءة النص – قراءات في الشعر العربي الحديث، ط٢، الهيئة المصرية العانة للكتاب، ١٩٩٨م.

٢٥. عبد الرحمن، عائشة، تراثنا بين ماضٍ وحاضر، ١٩٦٨.

٢٦. الطعان، هاشم، التراث والأديب المعاصر، مجلة الأديب المعاصر، الأعداد: ٢٤، ٢٥، ٢٦، السنة الخامسة، ١٩٧٧م.

٢٧. المحمدي، عمر خليل إبراهيم، أثر التراث الجاهلي والإسلامي في الشعر الأندلسي – عصر الطوائف، الجامعة المستنصرية – كلية الآداب – قسم اللغة العربية، دكتوراه، ٢٠٠٣.

٢٨. المقالح، عبد العزيز، من البيت إلى القصيدة – دراسة في شعر اليمن الجديد، بيروت: دار الآداب، ١٩٨٣م.